

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٨٤

تاريخ اليهود في بلاد العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام



تأليف الدكتور

اسرائيل ولفنسون

(أدب)

استاذ اللغات السامية بدار العلوم



« حقوق الطبع محفوظة »

مطبعة الاعتماد بشان حسين الكبريت

مقدمة

لحضرة الأستاذ الكبير والنقادة السهر الدكتور طه حسين

الدكتور اسرائيل ولغسون عالم شاب يسرني أن أكون أنا مقدمه الى جمهور المستنيرين من الذين يكلفون بالبحث عن الأدب والتاريخ . أقبل الى مصر وأن له ثقافة متينة متنوعة ، قد اتقن من اللغات الأوروبية الحية أرقاها وأوسعها بالبحث العلمى التاريخى ولاسيما فيما يتصل بالمسائل الشرقية العربية ، وأتقن من اللغات السامية أغناها بالآثار القيمة فى الدين والأدب والعلم ، ولم تقف ثقافته عند اتقان هذه اللغات بل درس من آدابها حظاً وفوراً فكان له مزاج معتدل من هذا القديم السامى والجديد الأوروبى يعدّه أحسن اعداد لنناول المسائل التاريخية والأدبية الزقيقة اذا تهيأت له مناهج البحث كما اتفها علماء أوروبا فى هذا العصر الحديث . وماهى الا أن انتسب الى الجامعة المصرية القديمة واختلف الى أسانذتها يسمع دروسهم ويعمل مهم حتى تهيأ له من ذاك ما كان يجب . ولقد كان يختلف الى دروسى فى التاريخ القديم فكان يعجبني منه ميل ظاهر الى البحث وحرص شديد على الاجادة والاتقان ونشاط غريب الى القراءة والاطلاع . وكنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود فى عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم . فرأيت أن أوجه بحشه هذه الوجهة وأشجعه على المضي فيها .

ولمت أنسى محاضرات تريفية القاهها في مثل هذه الموضوعات تركت في نفسي أحسن ما ترك أعماله التلميذ المجد في نفس استاذة من الأثر . ثم ظفر بشهادة اليسانس في الآداب من الجامعة القديمة وأخذ يستعد لشهادة الدكتوراه فلم يرقه من المباحث التي كانت تثار في الجامعة على كثرتها الا هذا المبحث الذي يتصل دائما باليهود وهو تاريخ اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام وأبان ظهوره

والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية . فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز . وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحوطت من المحاجة والمجادلة الى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربية . ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام معروفا على وجهه ، انما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص في غير تحفظ ولا عناية بالدقة والتحقيق وتكثر فيها المبالغات من الناحية اليهودية والاسلامية لاغراض مختلفة معروفة . وكان المستشرقون قد عرضوا لهذا الموضوع من نواحي مختلفة فوفقوا بعض التوفيق ولكن أخطأهم الأصابة في كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استثمار مناهج البحث الحديث ، فاضطروا الى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد . على أن مباحثهم هذه القيمة كانت وما زالت مجهولة في الشرق العربي لا يلم بها الا الذين

يتخذون هذا النوع من العلم غرضاً يسعون إليه ويثقون عليه بجهودهم
 فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق الى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه
 الى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه والذي أقدمه أنا الآن الى
 القراء سعيديا مغتبطا بتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق الى تحقيق
 أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق الى عرض مباحث
 المستشرقين حول هذا الموضوع في اللغة العربية ولم تكن قد عرضت
 من قبل . ووفق بعبارة موجزة الى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد
 العربية قبل الاسلام وأبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في
 كتاب كانت اللغة العربية في حاجة اليه فأظفرها بهذه الحاجة

وإذا كان لي أن أتمنى للدكتور اسرائيل ولغفوسون شيئاً فأنما أتمنى
 له مخلصاً أن يمضي في عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم
 وبين الأمة العربية بعد الاسلام كما عني بها قبل الاسلام مهتدياً بهدى
 العلم الصحيح الذي لا يعرف مملأة ولا مشايمة ولا يرى للعالم الا
 غرضاً واحداً مقدساً هو السعى الى الحق والجد في الوصول اليه

طه حسين

٢٠ يونيو سنة ١٩٢٧

تقديم

ان الذى يدرس تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ليلس
حاجة اللغة العربية الى مؤلف خاص فى تاريخ اليهود الذين لا ينكر أحد
ما كان لهم من الأثر فى الجزيرة العربية لذلك العهد، ويجب كيف حرمت
اللغة العربية من مثل هذا المؤلف الى الآن؟

وأقرب ما يخطر بالبال فى تعليل هذا التقصير هو أن المتأخرين
من مؤرخى العرب لم يلموا المأما كافياً بتاريخ الجاهلية ، ولولا ذلك
لما أغفلوا تاريخ قسم كبير من سكان الجزيرة كان له من الحوادث
السياسية والوقائع الحربية والآثار الاجتماعية ما يستوجب أفراد
بطائفة من المؤلفات ، إذ كان الباحث فى تاريخ الجاهلية يتوقف نجاحه
على معرفة تاريخ اليهود فى بلاد العرب عامة وفى الاقاليم الحجازية بوجه
خاص

وقد يرجع السبب فى هذا التقصير الى جهل المؤرخين بالنتائج
المظيمة التى تترتب على معرفة تاريخ اليهود ، ولو أنهم اهتموا به لوجدوا
فى المراجع العربية القديمة مادة غزيرة تمكن الباحث المحقق من سد هذا
النقص وتعيينه على الثبوت من تاريخ العرب فى ذلك الحين

ان البحث في تاريخ يهود الجزيرة العربية أهمية عظيمة في حل المشكلات التي يتخبط فيها كثير من الناس وإمالة اللسان عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب

ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بني اسرائيل بألاف من السنين فان الباحثين يرون في اللغة العبرية وأدائها مقياساً صالحاً للبحث في جميع اللغات السامية ، إذ كان بنو اسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً روحانياً عظيماً في الادب والدين يعتبر اكبر مجموعة قديمة من أثر القرية السامية ، لان الذي وصل اليها من آثار البابليين والاشوريين والآراميين ضئيل جداً بالقياس الى ما وصل اليها من تراث بني اسرائيل . . .

على أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية ، فقد كانت شائعة قبل نشوء بني اسرائيل وظهورهم في العالم إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الاردن ، وكان من أهم تلك الامم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانسة واسماعيلية ثم ظهرت بطون بني اسرائيل بين هذه الاقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها الى الاقاليم الاخرى^(١) وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة الى أن ظهر تأثير احدى اللهجات الكنعانية وهي الآرامية ، فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الاصلية

تضمحل مع التغيرات السياسية الى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية ثم أخذت هذه اللهجات في القرون الاولى ب. م. تتدهور تدريجياً في أطراف الجزيرة العربية، وأخذت تنكش وتضائل أمام اللغة العربية التي كانت في ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة حتى اضطرت بعض القبائل الآرامية والمبرية الى أن تختلط بالمنصر العربي الاصلى وتندمج فيه شيئاً فشيئاً^(١)

وقد كنت فكرت في أن أخص أقوام طور سيناء ببحث منفرد أكتشف فيه بعض ما غمض من أحوالهم معتمداً على بعض الاخبار التي وصلت إلينا من مراجع عبرية ويونانية قديمة ، وعلى بعض الاكتشافات القليلة التي ظهرت حديثاً عن هذه الاقوام البائدة ولكني رأيت أن في هذا خروجاً عن الموضوع الذي نحن بصدده ، فأجلت هذا البحث الى فرصة أخرى ...

على أن سكان طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية من جهة الشمال الذين تعتبر بلادهم كمنطقة طيسمية بين بلاد العرب وبين فلسطين موطن بني اسرائيل ، قد أثروا تأثيراً شديداً في العرب وبني اسرائيل معاً ، فليس في استطاعتنا والحالة هذه أن نوفي موضوعاتنا حقها من البيان والتفصيل إلا بعد النظر الطويل والبحث العميق في تاريخ تلك الامم واحتجتنا الى هذا الموضوع في بحثنا هذا كحاجة الباحث في تاريخ

(١) راجع مقالنا عن لغة الآرامية ولهجاتها المنشور في السياسة الاسبوعية بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٢٦

روما القديم الى الالمام بتاريخ بطون وقبائل لاتينية ويونانية تديّة
عاشت في بلاد ايطاليا قبل نشوء مدينة روما



لقد صرح لي غير واحد من الاصدقاء بأنهم يوجسون خيفة من
ثوران عواطف بعض الاتدية من المسلمين واليهود من جراء التعرض
لموضوع الخلاف الذي نشأ بين الرسول ويهود يثرب ، وأن ميلنا الى
احدى الفئتين قد يكون سبباً في اثاره سخط الطائفة الاخرى
لكننا نعتقد أن رسالتنا موجهة الى طائفة المفكرين الذين
لا ينشرون دعوة خاصة في كتاباتهم ، بل يقصدون دائماً الى البحث المجرد
عن العواطف القومية والدينية

وما من أحد ينظر بامعان وانصاف الى حوادث اليهود والانصار
في يثرب دون أن تمتلئ نفسه بشعور الاجلال للفئتين ، لأن النضال
العنيف الذي وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور
المقدرة في حسابان كل من تتبع الحوادث التي وقعت في المدينة بعد أن
هاجر اليها الرسول ، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات
المسلمين تقضى حتماً بوقوع الرراك الشديد بين الطرفين

ومن أجل ذلك فقد تغيرت الحالة تغييراً جوهرياً بعد أن انتهت
الخصومة السياسية بين الرسول وبطون يثرب ، حتى شرع اليهود ينظرون
بميوّن الاكبار والاحترام الى جيوش المسلمين الى كانت تغمر كالسيل
أقطار العالم ونواحيه ، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة
الرومية في أقاليمها القاصية والدانية ، تلك الدولة التي ملأت تاريخها

بجواذب الظلم والفساد وإهراق الدماء مدة طويلة من الزمان .
وقد كان اليهود في أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش
المسلمين بالخفاوة والاكرام لانهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون
فيهم قوماً يؤمنون بالله موسى وإبراهيم
ولقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل
اليهود في جيوش المسلمين ليناضلوا معهم في أقاليم الاندلس
ونبغى ألا يفتب عن الببال أن الخسارة القليلة التي لحقت يهود
بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس الى الفائدة التي اكتسبها المنصر اليهودي من
ظهور الاسلام ، فقد انقذ الفاتحون المسلمون آلافاً من اليهود كانوا
منتشرين في أقاليم الدولة الرومية ، وكانوا يفاسون ألوانا شتى من العذاب
زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين في الاقاليم الاسلامية كان
سبباً في نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها في تاريخ الآداب
العربية والعبرية زماناً طويلاً . . .

ويجمل بنا أن نلفت الانظار الى أننا نسبنا كل ما لم يكن من رأينا
سواء كان كبيراً أو صغيراً الى صاحبه وذلك قد يتطلب في أغلب الظروف
جهداً غير قليل

أما الآراء التي لم نسبها لغيرنا فهي بطبيعة الحال جديدة وبمضها
عرضة للنقد والشك ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة
عظيمة يرتاح لها الضمير ويطمئن اليها الخاطر

— ك —

ولا يسفى بعد هذا الا أن أرفع خالص الشكر للقائين بأمر الجامعة
المصرية وأساتذتها الأجلاء

وبهذه المناسبة أقدم تمنياتي الطيبة وعاطر ثنائى لحضرة الاستاذ
العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار الذى أسدى الى الكثير من
النصح والارشاد

أما رجل اليوم أستاذى الدكتور طه حسين الذى تفضل وقبل
الاشراف على رسالتى وبذل الكثير من وقته الثمين فى قراءتها فالى نبوغه
التادر المثال فى النقد يرجع الفضل فى هدايتى الى بعض دقائق هذا البحث
الذى أرجو أن يظفر برضاء القراء الكرام والسلام

اسرائيل ونفسونه
(ابو ذؤب)

٢٤ يونيه سنة ١٩٢٧

نقدم جزيل الشكر الى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى كلفت
نفسها مؤنة الاتقان على طبع كتابنا هذا ، وليس ذلك بغريب من هيئة
اللجنة التى جعلت ديدنها العناية والاهتمام بنشر العلوم والمصنفات

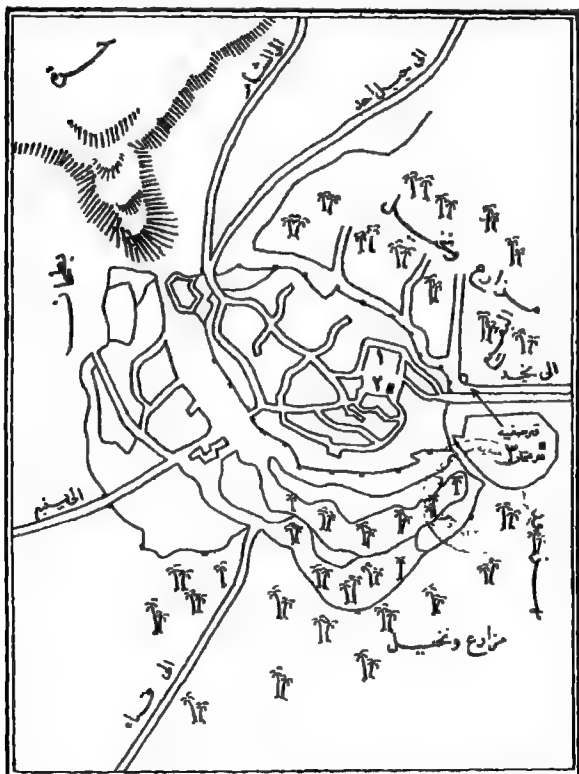
المؤلف

٢٥ يونيو سنة ١٩٢٧

المدينة المنورة (يثربا)

مقاس ١ : ١٢,٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) جبهات



الباب الأول

اليهود في بلاد الحجاز

تقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طودين — مراجع البحث في التطور الاول — المرحلون لآله وعبدت الاصنام من بني اسرائيل في العهد القديم — أول هجرة اسرائيلية الى بلاد العرب — للمص التاريحي — رأى بعض المستشرقين فيه — رأى المؤلف في هذه الهجرة — رأى القدماء مؤرخي العرب عن وجود قبائل اسرائيلية مائة في الجزيرة العربية — مصحف العهد القديم وحوادث بني اسرائيل في الجزيرة العربية قديماً — معاجرة بطون يهودية من أوائلها الى الجزيرة في الطور الثاني — أسبابها — أشهر البطون اليهودية في بلاد العرب — زوالها في مواطن اليهود القدماء — انتشار الحركة الزراعية والتجارية والصناعية في الحجاز نشاط اليهود — الفرق بين الطودين في الاستعمار — سكوت المراجع لليهودية عن تاريخ بني اسرائيل في الجزيرة العربية — شكوك مؤرخي الافرنج في كثير مما ذكر مؤرخو العرب عن يهود الجزيرة — هل كان يهود الجزيرة من الوجهة الدينية مثل أبناء حلبنهم ؟ — اعتناق بطون عربية للديانة اليهودية — بحث في أساء القبائل اليهودية — رأى البقوي — رأى المؤلف — حصون وآطام اليهود في بلاد العرب — أسباؤها العربية والسرية — المواد التي كان اليهود يتجرون فيها — شيوع الرما عند اليهود والعرب — صناعة الصياغة عند يهود يثرب — سوق بني قيسقاع — الفواثر الزراعية لليهودية في الحجاز — لمة اليهود في بلاد العرب — الرطاة اليهودية — الاحبار — القدماء عند يهود الحجاز — قلة اليهود — الصلاة — الصيام — تحلق اليهود ماخلاق العرب — منزلة الشرع العربي عند اليهود — رأى الاستاذ الدكتور طه حسين في أثر لليهود الادنى في الجزيرة — رأى المؤلف في شر اليهود للزعة الشرعية عند اليهود والعرب — كيف احتفظ شرع اليهود — السوءل من طائفة — آراء مؤرخي العرب فيه — الاب شيمو وديوان السوءل — تحليل شرع السوءل — أهم مبادئ السوءل — كم بين الاشراف — حياته وأشهره — اشتراك للفناء في النهضة الشرعية

رأيت أن أقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طودين أساسيين الطور الأول يشمل حوادث لبطون إسرائيلية مائة في بلاد العرب والطور الثاني يتناول أخباراً لمجوع من اليهود كان لها شأن عظيم في تاريخ الجزيرة العربية

فيقف آخر الطور الأول عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أما الطور الثاني فينتهي بإخلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية

وهذا التقسيم هو الشائع عند العلماء الذين كتبوا في تاريخ بني اسرائيل بوجه عام . ولستكلم أولاً عن الطور الأول بقدره . امكنتنا المصادر التاريخية التي استقينانها معلوماتنا عن هذا الطور قاتها مراجع قليلة تصطر الباحث الى بذل مجهود كبير حتى يستطيع أن يلتقي شعاعاً من النور يخفف به من وطأة ظلامه الدامس

كل بنو اسرائيل في هذا الطور الأول يعبدون الله مع تديسهم لبعض الأصنام على حين كانت طائفة منهم تعبد الله وحده مخلصين له الدين وهي طائفة الكهنة والأنبياء وبعض الطبقات من الاشراف والملوك والنقباء الذين آمنوا بومالة موسى واتبعوا شريعته^(١)

وكان الموحدون للاله في بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرون شيئاً فشيئاً على مرور الزمن وتوالي العصور حتى تأثرت العقيدة اليهودية بالشريعة الموسوية وخضعت لها أفكار اليهود وامتلأت بها قلوبهم وكان ذلك في بدء الطور الثاني بعد رجوع اليهود من السبي البابلي سنة ٥٣٨ ق . م .

ومن حيث أن المرجع الوحيد الذي يمكننا أن نستقي منه أخبار بني اسرائيل الى القرن الخامس ق . م انما هو كتاب العهد القديم فانه يجدر بنا أن نبحث فيه لنقف منه على حوادث الطوائف الاسرائيلية التي سكنت بلاد العرب

نجدنا في « أخبار الايام » عن أول هجرة مشهورة في تاريخ بني اسرائيل الى بلاد العرب أن بطون بني شمعون سارت الى أرض طورسينا مع ماثيتها لتبحث لها عن مرعى لئلا أن وصلت أرض قبائل عمان فلتضيق معها في قتال عنيف

(١) راجع كتاب المؤرخ Klausner הכהונה ישראלית - ١ ص ٨ وكتاب

العالم سمحوني דברי יצישראל - ١ ص ٣٠

اتنهي بنو بطون شمعون ومنهم لأجرام من لبطون المعانية شمر من^(١)
ومع ما لهذه الرواية من عظم القيمة في بحثنا فأننا نرى فيها عوضاً وإبهاماً
إذ لا نستطيع أن نعلم منها متى نزحت بطون بني شمعون الى جزيرة العرب
غير أن العالم حوزي يحاول في مصنعه عن بني اسرائيل في مكة^(٢) أن يثبت
أن الهجرة الشمعونية حدثت قبيل عصر الملك داود حوالي عام ١٠٠٠ ق م في
حين يارضيه المستشرق مرجوليوث في كتابه عن علاقة العرب بالبطون
الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام^(٣) ويقرر أنها لم تحصل الا في عصر الملك حزقياه
الذي حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧-٦٩٠ ق م
وأما بعض المحدثين من العلماء والذين لا يريدون أن يخوضوا غمار المناقشة
مع هذين العالمين فلم ينزعوا لما قالاه بنى أو إثبات ولكنهم يرون أنه لا يمكن
التحويل على هذه الرواية المنقولة من الكتاب المقدس لقلة النصوص التاريخية
القاطعة عن وجود بني شمعون حتى أن الذي يتلو صحف العهد القديم لا يجد شيئاً
عن قبيلة شمعون في تاريخ بني اسرائيل سوى رواية تدل على اشتراكها مع
بطون بني يهوذا في فتح فلسطين^(٤) وسوى ما جاء عن نزوحها من الديار
الاسرائيلية

مثل هذه القول القليلة دفعت هؤلاء المحدثين من المستشرقين الى أن
يشكروا في أن تكون قبيلة شمعون هذه كان لها وجود في عالم الحقيقة^(٥)
ولكننا نرى أن انكار وجود قبيلة شمعون أمر غير ميسور وقد كان لها ١٢

(١) أخبار الالم صل ٤ آية ٣٨-٤٣

(٢) Dozy : Die Israeliten zu Mekka ٩٨ — ٤٠ م

(٣) Margoliouth : The relation between Arabs and Israelites

٥١ م prior to the rise of Islam

(٤) قصصه فصل ١ آية ٣

(٥) Burney : Israel's settlement in Canaan م ٣٧ — ٥٨

مدينة في جنوب فلسطين دخلت في حوزتها بعد استيلاء يوشع بن نون على
البلدان الكنعانية وأقامت فيها مدة طويلة (١)

على أن لدينا ملاحظة على الرواية المنقولة من كتاب أخبار الأيام عن هجرة
بنى شمعون طلباً للمرجى فقط وهي أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تزح جميع بطون
شمعون من فلسطين تاركة منها وزوتها مرة واحدة وفي وقت واحد إلى بلاد
أخرى ليست أحصب من بلادهم بدرجة كبيرة بل ليست هناك فوارق طبيعية
بين البلاد وقد تكون البلاد التي تقول الرواية إنها ساروا إليها طلباً للمرجى أشد
اجداً من بلادهم التي رحلوا عنها ثم لا يعودون إلى موطنهم الذي منه نشأوا وفيه
عاشوا على كر الزمن ومرور الأيام

مقول أن تزحج سنو المحل والقسط الناس عن مواطنهم وتضطرم إلى أن يرحلوا
عنها ليجدوا ما يقتاتون به ولكنهم لا يرحلون عن بلادهم جملة واحدة ولا يقصدون
جهة معينة وهم محتشمون بل يتفرقون هنا وهناك وتقصد كل فئة ناحية من النواحي
الحيطية والقرية منها ليأخذوا ما يستطيعون الحصول عليه من أسباب العيش ثم
لا يلبثون أن يعودوا إلى بلادهم وموطنهم ليستأنفوا فيه الحياة المأدبة الواحدة
أما أن يخرجوا من بلادهم جملة واحدة ويقصدوا جهة معينة وهم جماعة ولا
يعودوا إلى بلادهم مطلقاً فهذا لا يكاد يوجد في تاريخ بني إسرائيل

ولو أغضينا النظر عن كل هذه الاعتبارات وفرضنا صحة هذه الرواية
وصدقنا أن هذه الهجرة قد وقعت كما يصورها لنا النص المنقول من سفر أخبار
الأيام فأننا نفتقد أن تكون قد حدثت في زمن قديم جداً في القرن الثاني عشر
ق . م . على أقل تقدير إذ لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا بعد تدوين الحوادث
التي تقع لهم في صحف، أي أنها حدثت في زمن غير بعيد من عهد الاحتلال
الإسرائيلي للبلاد

(١) كتاب يوشع بن نون فصل ١٩ آية ١ - ٩ وصحف الاخراج ١ فصل ٤ آية ٢٨

وكما أن حوادث الفتح لم تصل إلينا واضحة وأقية كذلك وصلتنا أخبارهم في روايات غامضة وذلك لأن بني إسرائيل بعد توغلبهم في فلسطين بقوا زمنا غير قليل محتفظين بصفات وسمات سكان الصحارى في أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ونفوسهم من كل أنواع التغيير والتجديد

وقد مضت عليهم قرون عدة وهم في همجيتهم الاولى حتى دار الزمن دورته وأخذت الاحوال الاجتماعية والادبية تتبدل وتتحول الى أن ظهر عند الشعراء والمفكرين ميل شديد الى تبوين أخبار المصور الماضية وذكر أيام القبائل الاسرائيلية وبيان أوطانها التي نزلت عنها والظروف التي دعت الى تركها وكلن غرضهم من ذلك أن يحافظوا على أنسابهم وأن يشيدوا بما كان لهم من مجد وسؤدد أما فيما يتعلق ببلاد وقبائل معان فإن المستشرقين قد اتفقوا على أنها قد سكنت بين جهات يثرب ومكة ويسمىون في ذلك على أقوال الجغرافى سترابو الذى جاء باسماء دول الجزيرة العربية مرتبة على هذا المنوال :

قبائل معان وعاصمتها قرنا

قبائل سا وعاصمتها مارب

دولة ثمنا وكانت في جهات بلب المنحب

مملكة حضرموت وعاصمتها سبوة

ويتصح من وصف بلينوس (Pinus) لاهل معان أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد ووفرة المال^(١) ويسرد لنا العالم جلازر (Glaser) في كتابه الذى صنفه عن بلدان الجزيرة العربية حوادث كثيرة لبطون معان وعلاقتها مع أمم فلسطين وأساس بحثه قائم على منقوشات قديمة عثر عليها في جهات مختلفة من تلك الاصقاع^(٢)

(١) دوزى ص ٦٦ - ٦٨ مرجع ليوت ص ٥١

Glaser : Skizzen und Gleschichte Arabiens bis (٢)

Moh Glaser . Sammlung

وتذكر لنا صحف العهد القديم من أخبار بني اسرائيل عدا هذه الهجرة أن بلاد طورسينا وشمال الجزيرة بوجه علم كانت ملجأ يقصد اليه كثير من بني اسرائيل الذين كانوا يفرون من وجه الملوك والحكام الظالمين^(١) ثم في عهد الملك يحننصر فانه حين غزا اورشليم قصفت جموع من اليهود أرض الجزيرة^(٢) ولم تنفل المصادر العربية الاشارة الى أن قبائل اسرائيلية كانت تسكن بلاد العرب منذ زمن قديم جداً فقد قال صاحب الاغانى « كان ساكو المدينة في أول الدهر قبل بني اسرائيل قوماً من الامم للماضية يقال لهم العاليق وكان ملك الحجاز منهم قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل غزو وبني تنديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له الارقم ينزل ما بين تيه الى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود الى الجبارة من أهل القرى يغزونهم فبعث موسى الى العاليق جيشاً من بني اسرائيل وأمرهم أن يقتلهم جميعاً اذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحداً فقام الجيش الحجاز فأنظروهم الله على العاليق يقتلهم أجمعين إلا ابناً للارقم كان وضيئاً جميلاً فصنوا به على القتل وقتلوا ونذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى قد توفي فقالت لهم بنو اسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسا به عن القتل وقتلنا فأتى به موسى فيرى فيه رأيه فقالوا لهم هذه ممصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأن لا تدخلوا عليها الشام أبداً فلما صنعوا ذلك قتلوا ما كان حياً لنا من منارل القوم الذين قتلناهم بالحجار نرجع اليها فنقيم بها فرجعوا على حياتهم حتى قدموا المدينة فزولها وكان ذلك الجيش أول سكى اليهود للمدينة^(٣)

(١) ملوك ١ - فصل ١٩

(٢) أرميا فصل ٤٠ آية ١١

(٣) الاغانى ج ١ ص ٩٤ (ان مؤرخى العرب لم تكن لديهم كتب لتقديمهم فدك

ويضيف ابن خلدون الى هذه الرواية أنه يشك في صحتها لأنها لم توجد عند اليهود ولأن اليهود لا يعرفون هذه القصة (١)

ثم يحدثنا ابن خلدون أن داود لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه فر مع سبط يهوذا الى خيبر وملك ابنه الشام وأقام بخيبر الى أن قتل ابنه وعاد الى وطنه فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً بئرب ويجاوزها الى خيبر (٢)

غير أننا نرى أنه لا يمكن التمويل على ألقصيص من هذا النوع سردها المراجع العربية على أنها أساطير سائفة وروايات غير جديرة بالاعتداد عليها ولذا لم يكن مؤرخو العرب قد استطاعوا أن يصلوا الى أخبار ثابتة موثوق بها عن بني النضير وقرظة ومتى كان ظهورهم في بلاد العرب فكيف يستطيعون أن يصلوا الى أخبار حقيقية عن طوائف إسرائيلية قديمة بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وقرظة ؟ ...

كذلك لا يمكننا أن نطمئن الى الاخبار اقليلة التي نصت عليها بطريقة غير مواترة صحف العهد القديم عن وصول جموع إسرائيلية الى الجزيرة العربية ولا نستطيع أن تثبت هذه الأخبار انشأاً حقيقياً

وإنما الذي يمكننا أن نقوله على سبيل الظن اعتماداً على هذه الأخبار هو أن القدماء قد اعتقدوا أنه قد وجدت في جهات يثرب وخيبر بطون إسرائيلية قبل وصول جموع اليهود الى الأصقاع العربية في الدور الثاني ويؤيد هذه النظرية ما نجده في كتاب العهد القديم من النص على وجود علاقة

وهم اما يبولون على ما رأوا في سفر العدد من حروب بني إسرائيل والمدبيين والاموريين وغيرهم ويتوسعون في ذلك الى أرض الحظز ويريدون على ما عهد الاسرائيليين بنير سلطان أتايم (رأى الاستاذ الشيخ النجار)

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ٨٨

(٢) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ١٨٦ اما رواية ابن خلدون أن داود ذهب الى خيبر فلا يوجد ما يصححها وداود لم يخلو عهايم

متينة بين بلاد فلسطين وبلاد الجزيرة العربية .
كانت فلسطين بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر
و العراق من جهة أخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها الى أسواق مدن
بنى اسرائيل وكنعان^(١) وكان تجار اليهود يرحلون الى ميسا في عهد سليمان وبعده^(٢)
كذلك نعلم ان بعض ملوك بنى اسرائيل انتصروا وانتصارات باهرة على
قبائل عربية وعماقة غزوها وانهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا الى أرض الجزيرة^(٣)
ونعلم أيضاً ان مدينة العقبة (ايلة) كانت في عصر من العصور مستعمرة
يهودية^(٤) وانخلاصة ان عناصر اسرائيلية يظن انها قد هاجرت من ديارها الى
الاقليم العربية في عصور مختلفة ولاسباب شتى غير انها هاجرت كما هاجرت قبائل
عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها

وقد حاول بعض المستشرقين ان يجدوا علاقة بين حوادث وقعت لقبائل
عربية بائدة من جرم وغيرها وبين اخبار رويت عن بطون اسرائيلية قديمة كانت
في الجزيرة العربية^(٥) ولولا قبح الاعتماد على الخدس والتخمين لتابعت من كتب
في هذا الباب من المستشرقين ولكي أؤثر الاحتياط وافضل الاكتفاء بهذا المقدار
لأنقل الى الكلام عن طور اليهود الثاني في بلاد العرب

أحدثت جموع كثيرة من اليهود في القرن الاول والثاني بعد الميلاد تهاجر الى
الأرجاء العربية عموماً وإلى الزبوع الحجازية بسوء خاص ولا شك انه كانت
هناك أسباب دعت هذه الجموع الى ترك أوطانها والزوح منها الى البلاد
العربية ويمكننا ان نلخص هذه الأسباب فيما يأتي :

- (١) حزقياء فصل ٢٧ آية ٢١
- (٢) ملوك جرم ١ فصل ٩ آية ٢٦
- (٣) « صموئيل » جز ١ فصل ١٥ وأخبار الأيام جز ٢ فصل ٢٦ آية ٧
- (٤) ملوك جرم ١ فصل ٩ آية ٢٦ ملوك جز ٢ فصل ٢٦ آية ٢
- (٥) دوري ص ٩٤ — ١٩٥

(١) زيادة عدد اليهود في فلسطين، نتيجة مطردة، جعلت البلاد يشهد عن أن تسعم وتنفس لهم في سبيل الحياة وقد بلغ غدهم في ذلك أن كثير من أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد أن يهاجروا إلى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كعصر والعراق والجزيرة العربية (١).

(ب) حدث حوالي القرن الأول ق. م أن هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها وأخضعتها لسلطان الترس الروماني الذي قبض على زمام الحكم بيد من حديد ولكن النفور والاستياء في نفوس اليهود كان شديدا إلى حد أن الثورات العنيفة كانت تشتعل نيرانها من حين إلى آخر وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بشدة وقسوة تزيد النفور وتضاعف الاستياء فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء في البلاد مع هذه الأحوال القاسية أن يلجأ إلى أرض الجزيرة العربية التي كانت أحب إليهم من غيرها نظرا لانظمتها البدوية الحرة ونظرا لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة ومنع توغلها

(ج) بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ ب. م) التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود في أصقاع العالم قصصت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب للرايا التي ذكرناها كما بحدثنا تلك المؤرخ اليهودي يوسف الذي شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها

و تؤيد ان مصادر العربية كل هذا فقد ذكر صاحب الاغانى انه لما ظهرت الروم على بني اسرائيل جميعا فالتام فوطئهم وقتلهم وبكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربن معهم إلى من بالحجار من بني اسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام فلما فصلوا عنها بأهلهم صحت ملك الروم في طلبهم

ليردم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مغاور وصحارى لا نبات فيها ولا ماء فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فساتوا وصحى الموضع تمر الروم فهو اسمه الى اليوم^(١)

وتتلخص آراء بقية مؤرخى العرب فى أن جموع اليهود فى الجزيرة العربية قد زادت وكثرت بعد اضطهادات الرومان لليهود وقد يجوز أن تكون هذه الروايات اتصلت بالعرب من يهود يثرب وخيبر

وإذا صح ما رويناها سابقاً عن تاريخ اليهود فى الجزيرة العربية فى النور الاول كان مؤيداً للرأى الذى يقول إن المهاجرين فى النور الثانى قد توجهوا فى بلادهم أمرهم الى الجهات التى كانت مسكونة بطوائف إسرائيلية من زمن قديم ولقد كان لليهود الى عصور النور الثانى بصع مستعمرات صغيرة فصارت بعد ذلك الحين كبيرة وكثيرة وظهرت مدن وقرى جديدة وآطام وحصون على رؤوس الجبال وانتشرت الحركة الزراعية فى الاراضى التى كانت منذ آلاف من السنين قاحلة ماحلة لان اليهود كانوا يشتغلون فى موطنهم الاصلى بالزراعة قبل كل شيء وكانت فلسطين غنية بمحاصيل القمح والشعير والزيتون والتمر والعنب وكانت تصدر كثيراً من تلك المحاصيل الى جهات مختلفة منذ عصور قديمة

وكذلك انتشرت الحركة الصناعية والتجارية وانشئت أسواق عديدة يهودية ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن الاستعمار الجديد لم يقم على حد الظن ولم يؤد الى طرد قبائل عربية أصلية من موطنها كما حست فى النور الاول الذى استأصل فيه الفانحون من بني إسرائيل شأفة بطون ميعينة وغيرها وانما الذى حدث فى الطور الثانى أن ضيقاً مصطرياً نزلوا على انشاء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والرحيب اذ كانوا يعلمون أنهم فارون من محالب السر الرومانى وسهل الامتراج بين هؤلاء وهؤلاء بحكم القريرة الجنسية والمناطة الدينية وتعاون الجميع

على السبل في سبيل الحياة فتجسروا وأنثروا. وكان لهم في بلاد المغرب شأن عظيم
ويجب ألا يغيب عن البال أن جهات يرب ووادي القري كانت غير أهلة
بكثير من العرب بل كانت جموع منهم تأتي إلى ودياتها في أوقات معينة من
السنة كقوافل راحلة مع إبلها لتأكل من أعشابها ثم تنزع عنها إلى جهات أخرى
وبطبيعة الحال كان اليهود في دورهم الثاني بالجزيرة حوادث تاريخية ذات شأن
بحكم عوامل التغيير والاعقاب وبحكم اختلاف الامزجة وتعارض الاهواء
وتضارب المصالح قد كان عندهم كبيراً بحيث يمكن اعتبارهم أمة قائمة بذاتها
يصيبها من ضرورات الاجتماع ما يصيب غيرها ويحدث بينها وبين جيرانها العرب
ما يحدث بين أية أمة أخرى وبين من يجاورها من الأمم ومع هذا فإنا نجد
للمصادر الاسرائيلية خالية من ذكر شيء عن تاريخ اليهود في ذلك الدور وساكنة
عن التحدث عنهم سكوتاً تاماً كأن لم يكن هناك يهود وكان لم تحدث لهم حوادث
وكان هذا السكوت موضع العجب عند الباحثين إذ هم يعلمون أن الامة الاسرائيلية
كانت كثيرة التدوين في كل عصورها مفرمة بجميع حوادثها وأخبارها في كل
البلاد التي نزلت بها جموع منها

وهي مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس
ومصر واليونان والرومان نجد فيها كل ما نتطلع اليه من اخبار اليهود في تلك البلاد
في حين لا نكتاد نجد مؤلفات عبرية عن يهود العرب الا شيئاً ضئيلاً جداً
لا يتجاوز بضعة نصوص اندجحت في بعض الكتب اندماهاً عرضياً غير مقصود
ولا شك ان هذا مما يضاعف عناء الباحث ويسد في وجهه سبل الكشف
عن نواحي الحياة عند يهود الجزيرة العربية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن وهي أن
سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل
دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الاقطاع عن بقية

أبناء جنبهم في جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة وكان الجزيرة التي انفردت بقياتها واقطعت عن العالم المتمدن انقطاعاً كلياً قصت على كل من يسكنها من اليهود ان يكون مثل أبنائها وان يقطع كل علاقة بينه وبين يهود البلدان الأخرى وبما لا شك فيه أن الصفات المدنية التي كانت لليهود قد زالت منهم بعد استيطانهم ببلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية وضمت فيهم تلك الوراثة الروحانية التي حملوها معهم الى كل بلد نزحوا اليه وأخذوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئاً فشيئاً حتى وقعوا في هوة المهجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة وان أمة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائنها لتورثها خلفها لا يلة حتماً الى أخط أنواع المهجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران^(١)

لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب الى المدنية من بقية العرب هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الافرنج ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم

وكما نرجع الى المصادر العربية في أثناء بحثنا عن حياة العرب في الجاهلية كذلك نستمد منها أخبار اليهود في تلك العصور وإذا كلف تاريخ القائل العربية فيها قد وجد مشوهاً تشويهاً غير قليل

(١) على أن هذا لم يمتد احتلال وجودكم في التاريخ والدين توسع اليهود في بلاد الحجاز ولكنها ضاعت في عصر الغروب التي حدثت بين اليهود والمسلمين في المدينة

في كتبك أخبار اليهود فيها تشتمل على مبالغاة كثيرة لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ الحق.

ولا ريب أن كل أمة تكتب تاريخها كما تحب ونهوى لا كما تريد الحقيقة المجردة عن كل غرض فهي تجتهد في أن تصور الواقع والحوادث التي تقع بينها وبين أية أمة أخرى بالصورة التي تظهرها كأنها أمة قد اجتمعت فيها كل المزايا والصفات الحمودة في حين تصور خصومها بشكل يدل على أنهم قد جموا كل الصفات المدمومة

ومن أجل هذا نجد مؤرخي المسلمين قد شنوا الفارات القلمية بعد الخصومات السياسية والدينية على قريش الوثنية والطوائف اليهودية لان الرائد الأسمى في تدوين المسلمين لأخبار الخصومات كان قبل كل شيء ذكر مجد القاهر وذل القهورين ولو وصلت إلينا أخبار الحوادث التي وقعت بين العرب واليهود في الجزيرة العربية من مصادر اسرائيلية لكان من الممكن بواسطة المقارنة بينها وبين المراجع التاريخية العربية أن نستخلص حقائق تاريخية ثابتة

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث ب. م. أنهم كانوا يسكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخصعوا لقوانين التلود خضوعا تاما (١)

وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة . كانت يهودية في اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلودي (٢)

ويجدتنا صاحب الاغانى عن الأماكن التي نزل بها اليهود في الدور الثاني فيقول: لما قدم بنو النضير وقرية و بهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبثة فكرهوها

(١) Graetz - ٣٣ ص ٧٥

(٢) ٣١ ص ٥١

ويعشوا رائداً أمره أن يلتصق بهم نزلوا بها فخرج حتى أتى العاقلة وهي بطحان وممزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع اليهم قال قد وجدت لكم بلداً طيباً نزحوا إلى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرّة طيبة في متأخر الحرة فتحول القوم إليها من مغرم قتل بنو النضير ومن معهم على ممزور وكانت لهم تلاحه وما تبقى من بساتين ومحمات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزحوا الأوس والخزرج من قبائل بني إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو جهل وبنو عوف وبنو القصيصة فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود وكلهم هناك معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حتى من اليمن وبنو مرثد حتى من بلي وبنو نيف حتى من بلي أيضاً وبنو معاوية حتى من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة وبنو الشظية حتى من غسان (١)

وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائهم القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة في أرض خيبر الواقعة شمال يثرب آهلة بأكرية مطلق من اليهود ثم هناك وادي القرى المشهور بارضه الخصبية وحدائقه الزاهرة كان أيضاً من المستعمرات اليهودية ووجد اليهود أيضاً بكثرة في أرض تباه . . .

ومن هذا يتضح ان جموع اليهود كانت منتشرة في شمال الحجاز ويظهر جلياً من أقوال بعض مؤرخي العرب (٢) ان بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالنصر اليهودي في بلاد الحجاز وأثرت في أخلاقه وعاداته تأثيراً ظاهراً ولكنها لم تستطع أن تغلب على عقليته الأصلية بل بقي هذا النصر ممتازاً

(١) جزء ١٩ ص ٩٥ الاغان

(٢) راجع ما نقلناه من كتاب الاغان من يوم بات في الباب الثالث

بقليلته امتيازاً ظاهراً:

وينكر المؤرخ اليعقوبى وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة في الحجاز بل يستند أن أغلبها من العنصر العربى وأقلها من العنصر اليهودى ويقول ان بنى النضير نخذ من جذام الا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه (١)

ولكن من جهة أخرى نجد طائفة من المؤرخين الافرنجى أن نجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقاً عبرياً (٢)

على أن الاستدلال يبحث لنوى كهذا على جنسية اليهودى بلاد العرب لا يمكن أن يستند به أو يعول عليه فمن الحق ان أسماء أكر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت الى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التى نزلت بها أسماء لها بل الواقع ان اليهود فى دورهم الثانى لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التى جاءوا منها فكان يقال مثلاً فلان الاورثلىسى والآخر الحبرونى وهكذا . . . نعم كان بنو اسرائيل فى دورهم الأول ينتمون الى قبائلهم فكان يقال مثلاً فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود فى وطنهم الاصل قبل ان يحل بهم تلك الرزايا التى شتتت شملهم وفرقتهم أبادى سبا قد وصلوا الى درجة عظيمة من المدنية والحضارة وبلغوا مكاناً علياً فى الرق الروحانى والاجتماعى حتى انهم من بينهم نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مدججة اندماجاً كلياً حتى نسي الافراد فكرة التفاخر بالانساب الى قبائلهم ونسبت القبائل عادة الاقبياض والاحتراس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للافراد والافراد للمجموع كما هو شأن جميع الأمم التى تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة

(١) تلويح اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ طبع يدين

(٢) ج ٣ ص ٧٦

وقد أشار التلمود الى مسألة الانساب الاسرائيلية حينئذ انها نجاعت
وذكر ان سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودي أحرق كتب الانساب
الاسرائيلية (١)

ومن هنا نعرف السبب في أن اليهود الذين نزحوا الى بلاد العرب لم يكونوا
بأكثر من أنهم يهود فحسب وفي أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم باللباء الأما كن
التي جلعوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود في بلاد العرب إنما هي النظر في الاخلاق
والتقاليد واتجاه الافكار والاعمال

ومن هذا السبيل نستطيع أن نحكم بان يهود يثرب خصوصاً وشمال الحجاز
عموماً أقرب الى العنصر اليهودي منهم الى العنصر العربي نظراً لما وصفهم القرآن
الكريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال لينحصنوا بها في أوقات
الحروب حين يفزوم الاعراب الطامعون في أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أوحين
تفزوم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب

ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمالي الجزيرة
العربية إنما أتى بها اليهود من وطنهم الاصل الذي كثرت في جباله الحصون المنيعة
ومن هذه الحصون التي أقامها اليهود في بلاد العرب حصن الأبلق للسموئل
وحصن القموي لبي أبي الحقيق وحصون السلام والوطيج وناعم وسعد بن
المعاذ الخ . .

وقال السهودي ان قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام
من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء النعي عن هدمها (٢)

(١) פסחים סב

(٢) خلاصة الرواء أغار دار السطى ص ٨٠

ومع ان أغلب أسماء البلدان والأماكن التي سكنها اليهود في الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادي بطحان فإن «معناه بالعربية الاعتماد ووادي مرور أو محزور ومعناه مجرى الماء وقال السهمودي سمران جبل بخير صلى النبي على رأسه والعامه تسميه سمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة^(١) فإذا علمنا ان في فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا انما هو لفظ عبري أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد ان نزحوا بمجانبه

ويؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قاله السهمودي من ان بعضهم ضبطه بالشين المعجمة . ثم بئر أريس قاتها نسبة الى رجل يهودي اسمه أريس بلغة أهل الشام^(٢) ولكننا نعتقد أن هذا الاسم في الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق في اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الخارث . وبئر روما اشتراها عثمان من يهودي^(٣) ومعناها بالعبرية البئر العاليه (כמר רומא)

وانما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء وبيننا علاقتها باللغة العبرية لنستدل منها على أن اليهود في بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية والعلماء المؤرخون يهتمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية في اليهود ولينصروا الى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب في الجاهلية وفي عصر ظهور الاسلام

أدخل اليهود الى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجاز^(٤)

(١) ص ٢٨٦ خلاصة الرواء

(٢) خلاصة الرواء ص ٢٢٦

(٣) ص ٢٣٢ خلاصة الرواء

(٤) Wellhausen · Skizzen & Vorarbeiten Heft 4 ص ١٤

ومنه من حفر الآبار في الأراضى العالية ^(١) ومن أجل هذا كانت أراضيهم
أخصب بلاد العرب .

وكان اليهود يشتغلون بتربية الماشية ^(٢) والدجاج ^(٣) وكانوا في جبات مقنا
يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة ^(٤)

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار
لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابي رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعه
بواسطة القوافل الى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة ^(٥)

ويمكن أن يقال ان تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال
الحجاز . ونظراً لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون
عندهم بعض الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه ^(٦) كما يقال عن النبي محمد
انه رهن درعاً بالمدينة عند يهودى وأخذ منه شعيراً لاهله ^(٧)

وكان أخذ الربا شائعاً عندهم حتى أن القرآن وجه اليهم بسببه أشد تقييد
وأعنف تأنيب « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدم
عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلمهم أموال الناس بالباطل
وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ^(٨)

ولكن العامل بالربا في تلك المصوّر لم يكن خاصاً بهم بل كان العرب جميعاً
يتعاملون به ولا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً بل كانوا يعتبرونه نوعاً من البيع وكان

(١) Wustenfeld : Geschishte der Stadt Medinah ص ٢١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٨٥

(٣) ابن هشام جزء ٣ ص ٢٨٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٠

(٥) تلويح الخميس للذيل بكبرى جزء ٢ ص ١٢

(٦) البحارى جزء ٢ ص ١١٦

(٧) البحارى جزء ٢ ص ١٦ و ٤٠

(٨) سورة النساء ١٠٨

للمعامل بالربا في مدينة الطائف شهرة فاقمة عند جميع مدن الحجاز^(١) وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بالربا^(٢)

ومن الصناعات التي كان اليهود في بلاد العرب يزاولونها صناعة الصياغة التي اشتهر بها بنو قينقاع اذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم في يثرب حتى خاص يعرف بمحي بنى قينقاع

وقد جاء في الاغانى أن النابغة الذبياني أقبل الى المدينة يريد سوق بني قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوقا عظيمة لخاصة به ناقته فأنشأ يقول : كادت نهال من الأصوات راحلتى . . . ما رأيت كاليوم قط لولا أنه يثربها بالسوط لاجتذبت ، قد ملئت الحبس في الآطام واستمتعت^(٣)

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدرع وسائر الآلات الحديدية التي كانت معروفة في بلاد الجزيرة في ذلك الزمن^(٤)

ولا غرو أن يكونوا كذلك فان صناعة الدروع المسروقة اشتهر بها داود (وأثنا له الحديد أن اعمل سابقات وقدر في السرد) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التي كانت تعيش في القرى وكانت مجموعة للدوائر الزراعية لتلك البطون هي التي تكونت منها مدينة يثرب كما يتضح ذلك من وصف السهمودي للمدينة^(٥)

وكذلك كانت الحال في خيبر وفي وادي القرى وتبء التي اشتملت على أرياف كثيرة

(١) توح البلدان ص ٥٦

(٢) توح البلدان ص ٦٤—٦٦

(٣) هذه الشطرات مأخوذة من الاغانى حرم ٢١ ص ٦٢ ومثل حوار بين النابغة والربيع ابن ابى الخثيع وقد اکتنيها بهذه الاشارة مراعاة لسياق

(٤) كتاب الماوى لواقدي ص ٢٧٢

(٥) خلاصة الوفاء للسهمودي ص ٨٠

وفوق ذلك فقد كان لليهود شرف بنون القتال والنصال وقد اشتركوا مع العرب في بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بني قينقاع الذي بعثوا به الى الرسول بعد يوم بدر انهم كانوا حوى قوة وبلش إذ يقولون فيه : يا محمد لا يتركك انك لتقت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم الفرصة انا والله لأن حاربناك لتعلن انا نحن الناس (١) كنفك نحمد عبد الله بن أبي يفتخر بشجاعة مواليه بني قينقاع ... (٢)



أما لغة اليهود في بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرمانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراسهم فكان من الضروري أن يدخل في مريتهم بعض الكلمات العبرية

وقد ذكر صاحب فحول البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب في تعلم الكتابة العربية (٣)

ويقسم القرآن يهود الحجاز الى قسمين : أحبار وجملة أميين « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » (٤) وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق (חבר) وقد كانت تطلق في العصور الأولى ق. م على كل عصفور من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفروشم (שורשים) ثم لما

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٥

(٣) البلاذرى ص ٤٧٣

(٤) سورة البقرة ٧٢

تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب عبر^(١) والملك كان الاحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنا من قصة لابن هشام « قال عبد الله بن سلام فأدخلني رسول الله في بعض بيوته ودخل عليه بعض اليهود وكلوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وجبرنا وعالمنا^(٢) »

وكان من أعمال الاحبار أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهي في كل الشؤون الدينية كما يقول القرآن الكريم « لولا ينههم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون^(٣) » وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات في كل يوم وكانت قبله اليهود أثناء الصلاة متجهة الى بيت المقدس كما كانت قبله رسول الاسلام الى من هجرته للمدينة اذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يمدو بمكة وقبلته الى الشام فكان اذا صلى صلى بين الركنين البراني والاسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام^(٤)

وقد يؤكد حديث البخارى هذا القول إذ يقول ابن رسول الله كان أول ما قدم المدينة يصلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكانت اليهود قد أعجبهم اذا كان يصلى قبل بيت المقدس^(٥) ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ في البوق^(٦)

(١) التفسيرات المأثورة جزء ٢ ص ٩٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٩

(٣) سورة البقرة ٦٨

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧١ و ص ٣١٤

(٥) البخارى جزء ١ ص ١٨

(٦) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠١ البخارى جزء ١ ص ١٠٦

وكان اليهود يصومون في العاشوراء فلما قسم النبي محمد المدينة وأمر يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوم فصامه موسى قال فأتانا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت لليهود تعده عيداً (١)



واذا وقفنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقيدة فانه من المتعذر أن نوفق الى التمييز بين الضعفين من وجهة الاخلاق والمبادئ والنظم والتقاليد الاجتماعية لان اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربي ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم أقلية تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقلية الجزيرة العربية

كان اليهود في قحارهم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماماً في جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم في التمدح بالشجاعة وعلو الهمة واكرام الضيف والنفور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون الديران في الليل ليرتدوا السائرين وليدعوم الى الضيافة والاكرام (٢) كما كان يعمل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم .

ذكر ابن هشام ان حى بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بى قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقبه على ذلك فلما مع كعب بحى ابن اخطب اغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يتج له فناداه حى افتح لى اكلمك هال ما أنا بماعل قال والله ان أغلقت الحصن دونى الا تخوفت

(١) البطوى ج ١ ص ٤٩٨

(٢) الواقدى ص ١٧٠

حشيشتك أن آكل منها فأخفظ الرجل ففتح له^(١)

وكا ان قرص الشعر كلن طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجاياهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كلن المفكر العربي يسترسل في القول الموزون استرسالا يستحضر القول ويأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود في قرص الشعر باللغة العربية اندفاعا قويا فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتنينة في الكرم والوفاء والشجاعة وفي وصف البلدان والحيوان وفي وصف جمال المرأة والتشبيب بها وبالأجمال كل ما كان يحرك نفس العربي ويدعوه الى قرص الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف وغفر كلن يحرك نفوس الشعراء من اليهود في الجاهلية ويدعوم الى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر للتين

يبدان ما وصل اليها من شعر يهود الجاهلية قليل جدا لا يعدو بصع قصائد وأبيات مبثورة في أمهات كتب الادب العربي

وهكذا أقعدتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتميز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذي الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الادبي فيسير الفهم لانتنا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات في العقول ولا سيما عند العرب ونزيد على أنهم العقلي انهم كانوا بدائهم للأنصار ومخاربتهم ايام تنزوا على الادب العربي وسببا في ضياع الكثير منه واختراع الكثير . . . ويصل الدكتور بعد بحث طويل الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) ان لليهود في الأدب العربي أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين

العرب وبين اليهود

(٧) أن اليهود كانوا كثيراً من الشر في الدين وهجاء العرب وقد أضعاه مؤلفو العرب

أن اليهود امتلأوا شعرا لانبثات سابقهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب . . . (١)

والذي حلني على أن أثبت بعض نظريات استاذي الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) أني قد جمعت كل ما ينسب الى شعراء اليهود في الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلي في حين ان هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقيدة واتجاه الأفكار (٢)

(٢) لا شك في أن اللغة العبرية تركت في أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الديني (Liturgie) فقد كانت النزعة الدينية قوية في نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر ديني بمحمد التوحيد وآل موسى وأنبياء بنى اسرائيل ويمحط من قبه الأصنام وعبادتها لان مثل هذا السوع قد ظهر في الادب اليهودي في كل عصوره القديمة

(٣) ان الذي يميز نظره في قصائد السموءل يتضح له حليها انها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى لينعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنحل

هذا الى أن الايات القليلة التي وصلت اليها من شعر اليهود لا تكفي لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه الا أسماؤهم كأنها صدى ما كان لهم من شهرة وبعد صوت

« (٤) إذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع أنهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصيبهم شيء سوى تغيير العقيدة بقيت لهم لغتهم وتقاليدهم فكيف كان من الممكن أن تحتفظ بشرها أمة غلبت على أمرها حتى قُي منها من فني وهاجر منها من قُتِل له أن يعيش ولكن في غير البلاد التي نشأ فيها وأطمان إليها وضاعت وراثتهم الروحية ولم يبق لهم ذكر في البلاد العربية

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود في الجاهلية فقد اشترك اليهود مع العرب في جميع المرافق الحيوية في الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم في النهضة الفكرية والشعرية

ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين في النزعة الشعرية وأنها كانت مطبوعة في النفس اليهودية وكأنه فيها قبل أن يسكن اليهود في الجزيرة العربية فلما انتقلوا إليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم تمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمراها الشهي قرض اليهود الشعر العربي ارتفاعاً وتكافؤاً

وعندى أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع إلى ضعف أقال اليهود على اعتناق الاسلام والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ومن تأسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أنيل وشرف عظيم وقد يجور أنه لو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموول لما وصل إلينا من شعره كثير ولا قليل ولا ممحنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم إلينا كانوا يعيشون في القرن السادس ب م. فأدرك بعضهم العصر الاسلامي

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيتاً من السموول بن عادياء الذى يُشعر اسمه بأن أصله عبرى رغم ما وجد عند بعض الأدباء الأقدمين من الميل الى إثبات أن هناك صلة بينه وبين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم فى العربية معانى مختلفة فهو اسم لطائر يكتفى بأبواه وهو أيضاً الظل وذباب الخلل السريع (١)

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى التور اليسير
وقال صاحب الأغاني انه من يثرب (٢) وكان صاحب ثناء التى عرفت بثناء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على ثناء بين الجباز والشام على راية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهى خراب (٣)

وأما الأب الذى طبع ديوان السموول حسب رواية أبى عبد الله فخطويه فله زعم غريب فى السموول ذلك انه يزعم أن السموول كان نصرانياً ويستند فى زعمه على ما يأتى .

(١) ان السموول كان ينسب الى غسان وغسان كانت نصرانية
(٢) انه فى بعض أبيات تنسب للسموول ذكر للسيد المسيح والحواريين
أما هذه الأبيات التى استدل بها الاب شيخو ففى ما جاء فى ديوان الحماسة
لابى تمام فى آخر اللامية المشهورة للسموول

فان ببى الديان قلب لقوهم تدور رحاهم حولهم ونحوهم
وكان ببو الديان كما وضع الاب شيخو من نصارى نجران (٤)

(١) قاله فى التاج ص ٧ - ٣٨٢ راجع ديوان السموول طبع الاب شيخو ص ٤

(٢) حراء ٦ ص ٨٢

(٣) مجمع البلدان لياقوت مرة ٦٥٣

(٤) راجع مقدمه الاب شيخو لديوان السموول

لكن التبريرى يقول في شرحه هذا البيت انه لعبد الله الحارثى لا السمولى (١) ... وقبل أن أعرض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية اذ هى التى كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السمولى وجمعه كل ما قاله العرب فى عصورهم المختلفة عن السمولى وهى التى دفعته الى أن يبذل مجهوداً عظيماً فى سبيل اظهار ديوان السمولى . قروناً بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعتة الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهوداً شديداً آخر فى سبيل جمع أثمار أغلب شعراء الجاهلية فى مؤلف واحد وتنظيمها تنظيمًا بديعاً وشرح ما فيها من كلمات غريبة كما جاء بارتدادات الافرنج فى هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعراء النصرانية بالرغم من ان الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولكنه وقد أبى على السمولى أن يكون يهودياً بالرغم من أنه لم يشك أحد فى يهودية السمولى فليس عجباً منه أن يدعى أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم فى سفره ليسوا الا مسيحيين

أما من جهة نسبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا فى نسب هذا الشاعر اختلافاً كثيراً فيما الأغاني يقول فى موضع انه السمولى بن عادياه (٢) إذا به فى موضع آخر يقول : ان غريضا اليهودى هو السمولى بن عادياه (٣) وبينما الميدانى فى أمثاله يقول انه السمولى بن حيان عادياه (٤) اذا بتاج العروس يقول انه السمولى بن أوى بن عادياه (٥) واذا بصاحب معاهد التنصيص

(١) ديوان الحلسه لاقى تمام طبع الرامى ص ٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ١٢

(٣) الاغانى جزء ٣ ص ١٢

(٤) امثال الميدانى جزء ٢ ص ٢٧٦ طبع مصر

(٥) تاج العروس طبع مصر جزء ٧ ص ٣٨٢

يقول انه ولد الكاهن هارون بن عمران ^(١) وبنما يقولون أن قبيلته غسان اذا
 بنيرم يقول ان أمه قبط التي كانت من غسان
 ونحن ازاء هذا الاختلاف والاضطراب في نسب السموءل لا نستطيع أن
 نطمئن الى رأى

لكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أم لم يصبح فليس يدل ذلك على
 أنه كان نصرانياً بل ليس يدعو للشك في صحة ما أجمع عليه المؤرخون من انه كان
 يهودياً ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى بهرمان قاطع على أن كل بطون غسان
 كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التي لم تذهب الى حدود الشام
 بقيت على وثنيها وان هناك بطناً من بطون غسان كونت حيا من أحياء مدينة
 يثرب ^(٢)

ومها يكن من شيء فليس يصح لعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون
 قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك في انه كانت هناك قبائل ندين
 بطونها بديانات مختلفة

ومن المحيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شمعة بن غريص أخا السموءل
 صاحب حصن تباه اليهودية كان يهودياً فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر
 والذى قلته عن بطون غسان يقال أيضاً عن آل بني ديان لكننى أضيف
 اليه أن الاسم « ديان » على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت
 كل الأسرة التي تحتكر لسمها مراكر القصاء الشرعى عند اليهود تعرف باسم آل
 ديان (٣٦) فمن المحتمل أن السموءل الذى كان يتنحى على قول بعض المؤرخين
 الى الكهان كان والده أو بعض أجداده حاكماً شرعياً فأطلق على الأسرة
 اسم ديان

(١) ملحد التتبعين طبع مصر جزء ١ ص ١٣١

(٢) الاطلى جزء ١٩ ص ٩٥

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نسطورية للسومول ويقول : وفي ديوان
هذا يدعوه الراوى يهودياً وليس قوله «مقتعاً»^(١) وقد تبينت انه «مقتع ١١...
أما الآيات التي جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من
السهل على أى شاعر نصراني أن ينحلها بالسومول في القصيدة الثائية المنسوبة
اليه وهذه بعض آيات القصيدة نقل منها ما يتعلق بموضوعنا

ينفع الطيب القليل من الرز	في الرزق للطوبى
ق ولا ينفع الكثير الخبيث ^(٢)	
فاجعل الرزق في الحلال من الكس	
ب وبرا سريرى ما حيث	
وأنتى الانباء عن ملك دلو	لمة آيات ملقنة
د فقرت عيني به ورضيت	
وسليمان والحوارى يحيى	
ومتى يوسف كفى وليت	
وبقايا الاسباط أسباط يبقو	
ب دراس التوراة والتسابوت	
واقفلاق الاواج طورين عن مو	
سى وبعد الملك الطالوت	
ومصااب الافريس حين عصا الا	
ه واذا صاب حينه الجالوت	

(١) ديوان السومول ص ٥

(٢) في نواذر أبى زيد الاصلارى طبع بيروت (ص ١٠٤) ان الخليل سأل الاسمى
من الحبث في هذا البيت فقال يريد الحبث وهى لغة خبير ويروى لغة قريظة فقال له الخليل:

ليس يظن القوي فضلا من الرزق	} جمع قائه موت في الرزق
ق ولا يحرم الضعيف الشخيت	
بل لكل من رزقه ما قضى الا	
ه وان حرز ألقه المستميت (٣)	

ويظهر ان الأب الفاضل لم يقنع برعنه فأضاف اليه قوله « ولعل فصل الخطاب في هذا ما يقال من أن السموءل كان من احدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التي اعبرت الاردن وقت حصار الروم لاوروشليم فسكنت في بلاد العرب (١) »

ويظهر من كلامه هذا انه غير عالم بتاريخ اليهود في صدر النصرانية فان مما لا جدال فيه انه وجدت طائفة يهودية نصرانية في مدي أمرها في الحين الذي كانت فيه النصرانية دعوة يهودية بمحنة وكان النصارى تبعية من شيع اليهود وقد فنت هذه الفئة بعد ان أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسرمان ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية (secte judéo-chrétienne) ذكر في القرن الثالث م.م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصرانية مفردة في الجزيرة العربية وعلى العموم فان ديوان السموءل لنقطويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسمين والنفث أتمجته قرائع مختلفة فمن شاعر متين الى آخر سحيف ومن شاعر مطبق الى آخر متكلف وأغلبها مزور مفسوس على السموءل أما القصيدة اللامية التي أولها :

إذا المرء لم يدنس من الأثوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

لو كان ذلك لغتهم فقال الكثير وانما كان ينبغي ان تقول انهم يظنون اناء ناء في بعض الحروف ..

(١) ديوان السموءل لنقطويه طبع الاب شيخو م ١٣

(٢) ديوان السموءل لنقطويه طبع الاب شيخو م ٥

والتي يقول عنها صاحب كتاب الطراز أنها تشتمل على مكارم الاخلاق من
سماحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره... ^(١) هذه اللامية
التي خللت اسم السموول ذهبت فيها آراء الادباء مذاهب شتى حتى ان الاغانى
يقف ازاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا انها لشريح بن السموول ^(٢)
ويقول مرة أخرى انها للسموول نفسه وينسبها في موضع ثالث لشاعر غير معروف
اسمه دكين المندري ^(٣) (١)

ولا شك ان اختلاف أقوال الاغانى ناشئ من تعدد الروايات التي كانت
أمامه وكذلك اختلف الرواة في نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم
بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيدها ومن
ينقص ^(٤) فهذه الاختلافات في نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة
في ترتيب أبياتها فتنتج حتما الريبة في نفس الباحث في صحة نسبتها للسموول
والتي يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموول في كتاب طبقات الشعراء
لابن سلام الجمحي ^(٥) الذي يعتبر ثقة في جمعه شعر الحاهلية نظراً لقدمه وسلامة
ذوقه ودقة قدمه يأخذه العجب حين لا يجد للسموول إلا أبياتاً قليلة مع عدم
تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموول

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريص ^(٦) ينسب ابن نباته في شرحه
لرسالة ابن زيدون ^(٧) نفس هذه القصيدة للسموول وهي القصيدة التي مطلعها

(١) راجع ديوان السموول ص ٧٥

(٢) الاغانى جزء ٦ ص ٦٧

(٣) الاغانى جزء ٨ ص ١٥٥

(٤) ديوان السموول ص ٢٥ — ٢٧

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي طبع مصر شعراء اليهود ص ١٠٩ — ١١٤

(٦) طبقات الشعراء ص ١١١

(٧) شرح ابن نباته لرسالة ابن زيدون طبع مصر ص ٥٤

يا ليت شعري حين أنعب هالكاً ماذا تُرثني به أوأحيى...

والسمول أبيات لا يشك في صحتها القسام

وفيت بأدع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوحى عادياً يوماً بأن لا تهدم يا سمول ما بنيت

بني لي عادياً حصناً حصيناً وبئراً ككاشئت استقيت^(١)

والذي قيل في شعر السمول يمكن أن يعتبر مقياساً صالحاً للبحث في شعر

بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا يوحه من الوجوه أن نقول قولاً فصلاً بأنها وصلت

إلينا من يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السمول هي شخصية كعب بن الأشرف وكان من

أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش

أيضاً وقد كان عربياً أكثر منه يهودياً إذ كان أبوه من عرب طى وأمه من يثرب

التضير وقد توفي أبوه وهو صغير فخلفته أمه إلى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره

وكان شاعراً فارساً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت

بين الأوس والخزرج وكان شاعراً فخلاً وخطيباً فصيحاً وكان يهجو النبي ويهجو

أصحابه فبمث النبي نفراً من أصحابه فقتلوه في داره^(٢)

وأما الأبيات التي ينسبها ابن سلام الجمحي لكعب بن الأشرف والتي

تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفها صادقاً وجزاً قلها تشهد لشاعرها بأنها

كان مبدعاً في أسلوبه معجاً بالماظر الطبيعية وهذه هي الأبيات

رُبَّ خَالٍ لِي لَوْ أَهْصَرْتَهُ سَبَطَ الْمِشْيَةَ أَبَاءَ أَفْ

لَيْنِ الْجَانِبِ فِي أَفْرِيه وَعَلَى الْأَعْدَاءِ سَمَ كَلَزَعَفْ

وَلَنَا بئرٌ رَوَاهُ جَمَّةٌ مِنْ يَرْدِهَا بَانَاءُ يَشْرَفْ

(١) الاغانى ج ١٩ ص ٩٩

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٦

ونجیل فی قلاع جمّة - تخرج التمر كأنتال الاكف

وحير في رجال خلة آخر الليل أهازيج بُدْف^(١)

وقد نسب اليه ابن هشام قصيدة في رثاء قنبل يوم بدر من سراة وعظما

مكة

طلحت رحي بدر لمهلك أهله ولشمل بدر تستمل الأدمع

قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعوا إن الملوك تصرع^(٢)

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الاشرف وبقية قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الاشرف فلنا الحق أيضاً أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الإطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة فكثيراً ما نعرفه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن نثق بنسبته هذه القصيدة الى كعب بن الاشرف . . على أن الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار يقول إن وحود شعر منسوب الى حميريين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضى أن يكون مودده في السيرة قد نخله غير قائله وحمله عليه كذباً وإن كان المنسوب اليه جاهلياً

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن مواطنها وتغلغت في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود قبائل اليمن القاسية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم له ولا تمحيه الى ترجمان يبرعما يحول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل فريق أن يلقياها الى الآخر . وهذا على عليه السلام ومعاذ رضى الله عنه أرسلهما رسول الله الى اليمن ولم يحتاجا الى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا

(١) طغاة الشراء ص ١١٠

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٨

اليهم : وهذا كما قلت دليل على أن المضرة قد سادت لغات العرب قبل الاسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر مستكثر أن يقول بها الحيدري أو القحطاني شعره القتي يريد أن يذيعه بين العرب . . . اهـ

ثم إن هناك اسما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القريظية التي ينسب اليها شعري رثاء قومها بعد أن قتل أبو جيلة أشراف اليهود حيث تقول

بنفسي أمة لم تكن شيئا بذى حُرُضْ تُغِيها الرياح
كحول من قريظة أَتَلَفْتَهَا سيوف الخزرجية والرماح
رزقنا والرزية ذات قمل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أَرَبُوا بأمرهم لجالت هناك دونهم جَاوَى رَدَاخ^(١)

ولو صححت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكا فصوليا في جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفي نمو القوى العقلية من ناحية أخرى

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام في جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس الطيف اليهودي النابغات والشاعرات والبطلات والملكات

(١) الاعلى جزء ١٩ ص ٩٦

الباب الثاني

ظهور اليهودية في بلاد اليمن

اسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن — اضطراب أقوال المؤرخين في هذا الباب —
العوامل الدينية والسياسية لظهور اليهودية في بلاد اليمن — مطلع الفول الرومانية الشرقية
في بلاد اليمن — لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ — وقت ظهور اليهودية في اليمن —
آراء المستشرقين — رأى المؤلف — أقوال مؤرخي العرب في ملوك حمير اليهود — أسباب
اعتناقهم اليهودية — رأى ابن هشام والطبري — أول ملوك حمير اليهود — يوسف ذو
نواس — حياته كما ذكرها ابن هشام — اضطهاد أهل نجران — أسباب ذلك الاضطهاد —
ذكر القرآن الكريم لقتل نجران — استجد أهل عمران بالروم — طاعة الحبشة على
اليمن — تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب — عام الفيل — تأميم
هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن ينسب الأسباب التي أدت الى انتشار الديانة اليهودية في شمال بلاد
الحجاز نريد أن نوضح العوامل الاخرى التي دعت الى ظهور الدين اليهودي في
بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية في بلاد اليمن على المصيبة اليهودية كما كان شأنها في
البلاد الحجازية لان الاغلبية المطلقة التي كونت أنصار هذا الدين الجديد في
اليمن كانت من سكان البلاد الاصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين في أسباب ظهور الديانة اليهودية في ربوع
بني حمير فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية
والنصرانية تمكنت فيه الاولى من أن تنقلب على الاخرى في بادى الامر ومن

هذه الطائفة الملاء (Oraetz Wellhausen Halevy)
وطائفة أخرى تعرف بأن للعامل الديني أثراً ظاهراً ولكنها ترجح أن
الباعث الاصلى إنما هو سياسى قبل كل شئ. ومن هذه الطائفة الملمان
(Glaser Winkler) وهذا الباعث الاصلى الذى تراه الطائفة الاخيرة هو أن
ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد ان فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة
العربية تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هذا الفرض طريقة
سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان الى تلك البلاد وأمرهم أن يشوا
التعاليم المسيحية بين أهل الحضرة والبادية من جهة ويمهدوا الاسكار والغفوس لقبول
السلط السياسى الرومانى من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا
ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها نشطوا لاجباطها وفكروا
فى أهضى الاسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها فهدام فكرهم الى أن يمتنعوا
الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيدا بدین توحيدى آخر
وقد أصاب ملوك حمير فى هذه الفكرة كل الاصابة لان اعتناقهم لليهودية
قضى على كل الحجج التى كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها فى
الترويج لدعوتهم السياسية واتقطعت الوسائل التى كانوا يتوسلون بها للتأثير فى
عقول أفراد الشعب وجماعاته
على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية فى بلاد اليمن لم يصرح
بها المؤرخون :
الاول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تسلط
عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة
سياسية فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة
فى فتح بلادهم
ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والنفور من

الجبشيين لانهم جميعاً كانوا آله في أيدي السادة من ملوك قسطنطينية
الثاني : — وله أثر كبير في انتشار اليهودية في بلاد اليمن — وهو أن تعاليم
الديانة اليهودية ومبادئها أقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التي كانت
تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك في شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية
فأني اعتقد ان النصرانية كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تغلب في وقت ما
على النفوس العربية بدليل ان البطون العربية المسيحية دخلت في الدين الاسلامي
بعد انصالحها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة في حين كان اليهود في شمال
الجزيرة وجنوبها يدافعون عن الديانة اليهودية دفاعاً شرفاً . فبقاؤون جيوش
الجبشة في اليمن قتالا شديدا رغم ما كانت عليه هذه الجيوش من قوة البأس
وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وان تفرقهم
وتمزقهم

كذلك لم يلب اليهود دعوة رسول الاسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة
ان أفراداً من اليهود دخلوا في ملة النبي محمد وولايته
ويؤيد هذه الحقيقة ما جاء في البخارى حيث قل : لو آمن بي عشرة من
اليهود لآمن بي اليهود (١)

وتاريخ ظهور اليهودية في بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج
حتى الآن

فيقرر المستشرق (Prococke) وهو من علماء القرن الثامن عشر ان دولة
حمير اليهودية ظهرت في القرن الاول ق . م

ولكن العلماء يعارضون في هذا الرأي ويقولون انه لو صح هذا الحدس لكان

يوسف المؤرخ اليهودي قد تكلم عن هذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية متحدة على أطراف نهر الفرات النامية عن فلسطين وهي دولة حديب (١) ويقرر العالم (Silvester de Sacy) في كتابه (٢) ان ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني ب . م . ولكن المؤرخ اليهودي شيفرينكر صحة هذا الرأي ويقول لو وجدت هناك دولة يهودية في القرن الثاني بعد الميلاد لكان التلود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها في قرون تأليفه (٣) (ختام التلود في القرن الرابع بعد الميلاد)

ثم ظهرت في المجلة الاسيوية الفرنسية (٤) مقالة قيصة ناقض فيها العالم برون (Perron) جميع نظريات من ذكرنا ويقول ان دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا في القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبري في هذا الشأن ويقول ان أحيحة الذي قاتل تيان أسعد أبي كرب ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجته سلمة فذهبت الى مكة حيث تزوجت من هاشم أبي عبد المطلب جد النبي محمد وهذا يدل على ان مقاتلة تيان أسعد لاهالي يثرب انما كانت حوالى نهاية القرن الخامس ب . م .

ثم ما ذكره الطبري من أنه كان لتبان أسعد بنون ثلاثة حسن وعمر وذرعة ، وذرعة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير

(١) שמעוני ج ٢ ص ١٩٢

(٢) Memoires sur divers evenement de l'histoire des Arabes (٢) avant Mahomet.

(٣) Graetz ج ٣ ص ٤٠٥

(٤) Journal asiatique 1838 Novembre p 358 (Sur l'introduction de judaisme au Yemen.)

واذن لا يمكن توجيه من الوجه أنت تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب . م .

لا شك أن حجة بيرون (Peron) أمثـن وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لانها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لان هناك شكاً في بعض الحوادث التاريخية التي ذكرناها أما أنا فأرجح ان ظهور اليهودية في بلاد اليمن قد حدث قبل بُنـان أسعد اذ من الصعب أن نقتنع بأن قبلاً واحداً يستطيع أن يرغم أقبـال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتناً داخلية وان عدم وجود معارضة للدين اليهودي ليدل على أنه كان هناك اناس من ذوى النفوذ السياسي صمحوا للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب الى اليمن وتركوها تنتشر شيئاً فشيئاً أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن بُنـان أسعد انها صارت دين البلاد على ان المقول أن يكون اليهود قد وجدوا في تلك الارزاء منذ أزمان بعيدة اذ لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا في بلاد الحجاز في حين لا يكون منهم أحد في بلاد اليمن لا سيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والترحال لتبادل البضائع في مختلف البلدان فلا بد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت الى نفور اليمن وحضرموت ثم توغلت الى الداخل شيئاً فشيئاً

ويقول الاساذ الشيخ عبد الوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جداً يرجع تاريخها الى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء في سفر الملوك الاول في الاصحاح العاشر آية (١) ما نصه (وممعت ملكة سبأ يخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت الى أورشليم بموكب عظيم وكلته بكامل ما في قلبها الى آخر ذلك الاصحاح — والاصحاح التاسع من أخبار الايام الثاني من آية (١) الى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الاول تكاد تكون احداها منقولة من الاخرى وكلها في وصف سليمان وحكمته واندھاس ملكة سبأ منه وتقديمها اليه الهدايا

والثعفت التي أتت بها من بلادها وثنائها على سليمان وإله سليمان ثم عودتها إلى بلادها — وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل وهي السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين إلى آخر الآية الرابعة والأربعين وما جاء فيها حكاية قول الملكة لقومها عن كتاب سليمان « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تملوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ أئتنني في أرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قلوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإني مرسلت إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ومنها (فلما جاءت قيل أهكذا عرتك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين) ومنها (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)

وأخبرني السيد محمد بن عقيل من سادات المسكلة أنه قرأ في تاريخ الجندی من نحو خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على اليمن رحلوا إلى حضرموت وكان مقامهم بذلك النواحي إلى خروج الحبشان من اليمن — اهـ . . . وقد أثبت العالم جلارر (Glaser) وحود اليهود في اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الاسلام واذن هؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا البساتين في النفوس وتعهده حتى ترعرع ثم نأصت حنوره وظهر الميل عند قيل أوعدة أقيال لاعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة إليها تدريجاً وقد كانت هناك جموع من العرب المتهودة وهي بطون كنانة وبنو الحارث بن كعب وبنو كعدة سكنوا جميعاً بمجوار مكة ^(١)

وقد يكون في حكم الممكن انه بعد أن قتل تبان أسعد راجعاً من ينرب جمع الاقبال المشهودة وكون فيها دولة حميرية يهودية لحد هجوم الدولة الحبشية وسد السبيل في وجه مطامعها وبلغ انتشار النصرانية التي كان ملوك الروم يتوسلون بها الى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

أما ورؤى العرب فيأتون بقصة طويلة تشير الى سبب جذر بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية في اليمن

يقول الطبرى كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها في بدأته خلف بين أظهرهم ابناً له قتل غيلة قدمها وهو جمع على نحرها واستصال شاة أهلها وقطع نخلها غير أن مسكان المدينة كانوا يقاتلونه بالتهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك منهم فيينا هو على ذلك من حربه لم اذ جاءه خبر أن من أحبار اليهود من بنى قريظة علمات راسخان حين معما ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها قتالا له أيها الملك لا تفعل فالك ان أيتت الا ما تريد حيل يملك وينهم ولم تأمن عليك عاجل العقوبة لان ينرب مهاجر نبى يخرج من هذه البلدة من قريش في آخر الزمان فتسأى عند ذلك الذى مع من قولها عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لها علماً وأعجبه ما مع منها فاعترف عن المدينة وخرج بها الى اليمن واتبعها على دينها . . . (١)

وكذلك يروى هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية ورؤى العرب دون أن يزيدوا شيئاً

بعد ذلك يقول الطبرى : لما توجه تبان أسعد الى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه وبين دخوله الى بلاده وقلوا لا تدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه دين خير من دينكم قلوا فما كنا الى البار فوافق الملك وكانت باليمن

(١) نقل بنسرف من كتاب الامم والملوك للطبرى جزء ٢ ص ٢٥

نار تحمك بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قلوا ذلك لتبان
 قل أنصتتم نخرج قومهم بأوثانهم وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما متلذذيهما
 حتى قصدا النار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت إليهم فلما أقبلت نحوهم
 حادوا عنها وهايوها فذبحهم من حضرم من الناس وأمروهم بالصبر فصبروا حتى
 غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى جباههما لم
 تضرهما فأصفت حير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن . . . (١)
 ولكي أميل الى انكار صحة هذه القصة بنقض الطرف عن أنها خرافة لان
 لا م لا تبدل أدياتها كما تبدل الافراد نياها بل أن التغيرات السياسية والدينية
 انما تحصل اما بتغيير بطل. واثقاب عقلى متدرج فى برهة طويلة مستمرة واما
 بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبنى الجديد مرة واحدة أيضاً . . .
 ولذى نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبى كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد
 أن يظا بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى اذا كانوا ييمض أرض العراق
 كرهت حير المسير . . . وأرادوا الرجعة الى بلادهم فكلموا أخا له يقال له عمرو
 وكان . . . فى جيشه فقال له اقتل أخاك حسن وتملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا
 فأجابهم فاجتمعوا على ذلك الا ذا رعين الحميرى فانه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه
 فقال نورعين

ألا من يشتري سهرآ بنوم سعيد من بيت قرير عين
 فأما حير غدرت وخانت فعدرة الآله لقي رعين

ثم كتبها فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لى هذا الكتاب
 عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من . . . الى اليمن فلما نزل عمرو بن
 تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهده ذلك سأل الأطباء والحزاء

من الكهان والمراقبين عما به قال له قاتل منهم انه والله ما قتل رجل قط أخاه
بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السم فلما قيل له
ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسن من اشراف اليمن حتى خلص
الى ذى رعين فقال له ذورعين ان لي عندك براءة فقال وما هي قال الكتاب الذى
دفعت اليك فأخرجه فاذا فيه البتان قهره وهلك عمرو . . . فرج أمر حمير عند
ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له
أخنيعة يتوف قتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة الى أن تغلب عليه
ذُرْعَة ذونواس ابن تبان أسعد أخى حسن وكان صيا حين قتل حسن ثم شب
غلاماً جيلاداً هيئة وعقل^(١)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة
بعد موت تبان أسعد أبى كرب وأن موجبات الكراهية والتحاسد والتنافس قد
فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن وعجى الاضطراب
فلعبوا دورهم باقتان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولا اذا كانت
ثورة أخنيعة يتوف متحمة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متحمة أيضاً
الى هدم كيان اليهودية فى اليمن فان جميع المصادر العربية لم تشر أقل اشارة الى
شئ من هذا

ولكننا مع ذلك نميل الى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بنورتهم أيضاً
الى هدم اليهودية إذ لا بد من آله يستعملونها لتأثير فى نفوس الشعب وتهميج
عواطفه وخير وسيلة لذلك إنما هي أن يظهروا بمظهر المداهمين عن عقيدة الآباء
والاجداد ودين البلاد الاصلى لاسيما وقد كان كثيرون من الاقبال لم يستبدلوا
بعد الديانة الوثنية بنيرها

ومن المحتمل أن التأثيرين كانوا يستمدون قوامهم وأهمهم من الخارج ويرجع هذا الاحتمال ما جاء في بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية تارت ضد ذى نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد وقد جاء في المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذى نواس هذا كما جاء منها الكثير أيضاً في المراجع العربية

يعتقد العالم Perceval أن ذا نواس حكم بلاده من سنة ٤٩٠ — ٥٢٥ ب. م في حين يقول شيفر إن ذا نواس ارتقى العرش سنة ٥٢٠ — ٥٣٠ ب. م (١) ويتضح لمن يبحث في ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودى بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان في عقليته وميوله يهودياً متعصباً لدينه مما يحصل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نموة أظفاره بدل علماء البحث والتنقيب جهوداً كثيرة في سبيل العثور على شيء من آثار الدولة الحثيرية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شيء منها طلقاً وهذا يدل على أحد أمرين

(١) أن هذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفي لانشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التي ترشد الخلف وتدل الاجيال المقبلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

(٢) أن الضغط الحبشى الذى قصى على دولة حمير المتهودة محال ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذى كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعاً سياسياً فقط بل كان نزاعاً سياسياً ودينياً في آن واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولاً من السياسية وفيها يبدل المتصورون كل مرتخص وعال في سبيل استئصال ساقية الدين المغلوب ومحو آثاره ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذى نواس بقوله : وتسمى ذونواس يوسف فأقام

في ملكه زنتاً. وبهجرا ن بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وم أهل فضل واستقامة فسار اليهم ذو نواس مجنوده ودعاهم الى اليهودية فغيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فغدا لم الاخذود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا (١)

والذي يعلم أن هجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يدهش لهذه المبالغة في عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضعة مئات وفضلا عن ذلك قلن ذا نواس لم يقتل كل أهالي هجران بدليل أن لم ذكرأ في أخبار صدر الاسلام (٢) وإذن فليس من شك في أن عدد القتلى من نصارى هجران لم يدرك عشرين ألفا بوجه من الوجوه فهي مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفا جدا حتى أنه ترك آثارا هاجت النفوس العربية في البادية والحاضرة

وقد خلد القرآن الكريم ذكرى قتلى هجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وم على ما يضلون بالمؤمنين شهود وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . (٣)

أما المصادر اليونانية فنقول إن معاملة ذى نواس لنصارى هجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيبهم الأمرين بواسطة عاملها في كل بلادها باسم الدين (٤)

بعد تلك الاضطهادات التي أصابت نصارى هجران حدث أن أقلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٦٥

(٣) سورة البروج ٤ — ٨

(٤) Graetz جزء ٢ ص ٨٨

ما بلغ منهم فقال له جدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك وكتب اليه يأمره بنصره والطلب بثأره فتقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً يقال له أرياط ومعه في جنده ليرة الاشرم فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثملبان وسار اليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه ... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي ففجبه ذو نواس نحو البحر وضرب فرسه نفاض به ضحضاحه حتى أفضى به الى غمره ... (١)

على أن المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة افروس يقص خبراً لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحميري قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يُعامل تجار الروم بالقسوة والعنف ويضطهدوهم اضطهاداً شديداً كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى اقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصبحت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد وضعت فيها الحركة ضعفاً شديداً لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره الى الخارج من المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت تنور بلاد اليمن هي الوسطة بين الهند وبين جميع الاصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المروضات ولتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شل حركة أسواقهم بين الرضى لذلك تقدم ايدوج قيل من أقبال اليمن الوثنيين الى ذى نواس وقال له ان أعمالك القاسية ستؤدى الى قتل الحركة التجارية من تنورنا الى تنور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن اخواني اليهود في بلاد الروم يذوقون ألواناً شتى من الأحوال

والتعذيب قائمة أريد أن أكشف أيدي الروم عن اقتراف الالام بالابرار بمماثلتي
لتجارهم هذه المعاملة السيئة : . . .

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هذه السياسة التي يرى أنها
ستؤدي الى خراب البلاد ففكر في أن يتخلص من ذي نواس فاتفق مع باقي
أقبال اليمن الوثنيين وجمع بواسطتهم جمعاً كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب
عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية (١)

هذه هي رواية المؤرخ اليوناني يوحنا وهي تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية
من أن جيوش الحبشة هي التي قضت على دولة ذي نواس

ونحن نرجح ما روثه المراجع العربية لأن انكار غزو الحبشة لليمن غير ممكن
مطلقاً نظراً لأنه قد يؤدي الى انكار حوادث هامة أخرى حدثت في بلاد اليمن
والحجاز بعد ذلك بزمن قليل

على أن لدينا شهادة لقائمه من قواد الجيش الروماني الشرق الذي كان يحارب
في العراق ضد الجيش الفارسي أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب
لا يتعارض مع ما جاء في كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هذا القائد باسم
(Prokop) بروكوب وهذه هي شهادته : . . . وقد استمد ذلك الحبشة
(Hilistiaus) الذي كان يقاتل في دينه لمحاربة ذي نواس لأنه كان يأخذ الأموال
من تجار النصارى بضياء ثم جاء بجيش عظيم الى باب المندب ومن الثارة على سواحل
بلاد حمير فساد ذو نواس اليه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك (٢)

ولست أميل الى الرأي القائل بان رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افروس
مختلفة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد قتل

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٩

خسب بن تبارك أسعد أبي كرب إذ قد يجهل أن لخنيسة بنوف الوثني أوغيره طمع في عرش دولة حمير وخراب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة الى أن نأرا أحد أفراد الأسرة التي كانت مالكة لذلك المقنول وأعاد النظام الى نصابه وأخلفت المياه تجري في مجراها

وهذا الفرض لو رجحت صحته يؤيد بقية ما أشرنا اليه من اضطراب جبل الأمن بعد أن قتل حسن بن تبارك أسعد

ومما يكن من شيء قد كملت مساعي الحبشة وجهودها ضد الدولة الحميرية المتهودة بالسجاح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتركا كامليا في فتح اليمن لانه أرسل أسطول بحري مشحونا بالمتون والأسلحة الى الثغور اليمنية ويرجع بعض مؤرخي الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزلة أن تحتل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أقلقت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك^(١)

بعد ان خصصت الحبشة شوكة الدولة الحميرية اليهودية في بلاد اليمن انجبت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها في هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة في صنعاء ليصرف اليها حج العرب^(٢)

غير أن النساء وهم رؤساء الديانة الوثنية قاوموا فكرته ووقفوا سدا في سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير الى مكة يريد هدم الكعبة وإبطال عقائدها غير انه لم يوفق أيضاً لان جيشه انكسر انكسارا شديداً فعاد منهزما الى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المروقة بعام الفيل^(٣)

(١) Graetz جزء ٣ ص ٨٨

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٤٧ — ٤٤

وقد أشار القرآن الى هذه الواقعة في سورة الفيل حيث يقول « ألم تركب
فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل
ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول » .

وقد كان لانكسار الدولة الحيرية أمام الحبشة رنة أسمى شديدة في قلوب
اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن ابطال حمير ، فمن
ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا أسباط بني اسرائيل البائدة وان هذه
الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها الى داخل البلاد الرملية
وانها كونت في تلك الارحاء دولة عظيمة يظهر بعلمها في اليوم الذي ينح لها
فيه النضال ويؤذن لها بخوض المارك

وقد كانت هذه الاقاصيص سبباً في أن شرع جماعة من اليهود في القرون
الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليجتثوا عن تلك الجيوش التي توارت عن
العيون

الباب الثالث

بطون يثرب وهو اسمها وعراقها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود — تأثير انكسار الدولة المجرية في حياة اليهود
بلاد العرب — تخرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود في بلاد العرب — هجرة بطون
الافس والمزرج الى جوات يثرب — اضطراب أقوال مؤرخي العرب في زمن هذه الهجرة
— نص ابن هشام — رأى صاحب الاغانى — رأى الاستاذ الحضري بك — سيل المرم
وزمن حدوثه — آراء المستشرقين فيه — نتيجة بحاث العالم جلاد في هذا الموضوع —
سوء حال الافس والمزرج — أوائل هجرتهم — وصف السهودى لليهود وبطون
الازد أثناء سيادة الوفاق والصفا بينهم — اخلاص الصفا الى عداء بين اليهود وبين الازد
وأسياسه — قصة السهودى عن الملك الميطون — رأى المؤلف فيها — رأى صاحب
الافغانى في سب ظهور المداوة بين اليهود والعرب — من هو أمو جبية ؟ — لماذا تزعج
ابوجبية لهجرة يهود يثرب ؟ — هل كانت هناك مخالفة بين بطون الازد وملوك هان ؟ —
الارتياح في صحة قصة امو جبية واسطوره لليهود يثرب — ملوك هان والدولة الرومانية
الشرقية — الكفاح للتعريف بين اليهودية والعراقية في الجزيرة — يوم بسات — قصة
حوادث يوم بسات — حياة العرب في الماهلية — نتائج يوم بسات

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التي نزلت باليهود في بلاد حير قد أنتجت
نتائج سيئة لم يكن في الامكان أن تحدث لولا هذه النوائب
وأهم هذه النتائج خمس العناصر النصرانية التي كانت تعتمد على مؤازرة
الدولة الرومانية ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كياناتها والقضاء على أصولها
ومبادئها في جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهدم طمع القبائل العربية في أموال اليهود
ومستعمراتهم ورغبتهم في الحصول عليها والاستئثار بها

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أى فى العصر الذى نمت فيه اليهودية فى بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضرى والبدوى على أن تمس اليهود بأذى فى شمال الحجاز أو تصيبهم بأذى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية فى ذلك الشطر من الزمن بين الاعراب حتى صاروا يدخلون فيها زراعت ووحدا مما حمل بعض المستشرقين من أنصار Wustenfled على الاعتقاد بأنه قد ظهرت فى يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسى حتى شمل شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع ان هذا رأى مبالغ فيه اذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية فى شمال الحجاز اللهم الا اذا استثنينا قصة خرافية عن الفيلطون ملك يثرب^(١) وليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتى بيانه

وزيد قبل ان نوفى حوادث اليهود مع العرب فى شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الانظار الى البطون العربية المجاورة لهم وهى التى نلم بأخبارها بعض اللامم . يقول ابن هشام عن هجرة الاوس والخزرج الى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن انه رأى جرّذا يحفر فى صد مارب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فلم انه لا بقاء لفسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم اليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلاد لطم وجهي فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتصموا غضبة عمرو فاستروا منه أمواله وقالت الارد لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فصاروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين برتادون البلدان محاربينهم عك فكانت حربهم سجالا ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان

فَنَزَلَ آلُ جَفْنَةَ الشَّامِ وَنَزَلَتِ الْاَوْسُ وَالْخَزْرَجُ يَثْرِبَ وَنَزَلَتِ خَزَاعَةُ مَرَأً . . . (١)
 وَيُضَحِّحُ لَنَا مِنْ قِصَّةِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّ نَزُوحَ الْاَوْسِ وَالْخَزْرَجِ إِلَى جِهَاتِ يَثْرِبَ
 حَدِثَ قَبْلَ سَبِيلِ الْعَرَمِ لَكِنْ صَاحِبُ الْأَعْلَى يَعْتَقِدُ أَنَّ خُرُوجَ الْاَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ
 حَدِثَ بَعْدَ سَبِيلِ الْعَرَمِ وَيَقُولُ: لَمَّا أَرْسَلَ اللَّهُ سَبِيلَ الْعَرَمِ عَلَى أَهْلِ مَارِبَ وَهُمْ الْأَزْدُ
 قَامَ رَأْسُهُمْ فَقَالَ مَنْ كَانَ ذَا جِلٍّ مَعْنَى وَوُطِبَ مَعْنَى وَقَرِيَّةً وَتَنَ فَلْيَنْقَلِبْ عَنْ
 بَقَرَاتِ النِّعَمِ فَهَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ هُمْ وَلِيْلِحُقْ بِالنِّعَمِ مَنْ شَنَ فَكَانَ الَّذِينَ نَزَلُوهُ أَزْدُ شَنْوَدَ
 ثُمَّ قَالَ لَهُمْ وَمَنْ كَانَ ذَا فَاقَةَ وَقَرَّ وَصَبَرَ عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ فَلْيَلْحُقْ بِبَطْنِ مَرِّ فَكَانَ
 الَّذِينَ سَكَنُوهُ خَزَاعَةُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الْحَرَّ وَالْخَيْرَ وَالْأَمْرَ وَالنَّأْيَ
 وَالْإِيْسَاجَ وَالْحَرِيرَ فَلْيَلْحُقْ بِبَصْرَى وَالْحَضِيرِ وَهِيَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَكَانَ الَّذِينَ
 سَكَنُوهُ غَسَّانَ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا هَمٍّ بَعِيدٍ وَجِلٍّ شَدِيدٍ وَزَادَ جَدِيدٍ
 فَلْيَلْحُقْ بِقَصْرِ عَمَانَ فَكَانَ الَّذِينَ نَزَلُوهُ أَزْدُ عَمَانَ ثُمَّ قَالَ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الرَّاسِخَاتِ
 فِي الْوَحْلِ وَالْمَطْمِئَاتِ فِي الْحُلِّ فَلْيَلْحُقْ بِيَثْرِبَ ذَاتِ النِّحْلِ فَكَانَ الَّذِينَ سَكَنُوهَا
 الْاَوْسُ وَالْخَزْرَجُ . . . (٢)

وَأَمَّا الْأَسَازُ الْقَاضِلُ الْخَضِرِيُّ بِكَ فَيَرْجِعُ الرَّأْيَ الْآخِرَ لِسَبِّبِينَ

(١) لِأَنَّ مَفَارِقَةَ الْبِلَادِ عِنْدَ النَّفْسِ عَمَلُ مَفَارِقَةِ الرُّوحِ وَكِلَاهُمَا أَمْرٌ مَكْرُوهٌ
 شَنِيعٌ فَيُبْعَدُ جَدًّا أَنْ يَدْفَعُ عَلَيْهِ شَخْصٌ هُوَ وَأَوْلَادُهُ وَعَشِيرَتُهُ لِمَجْرَدِ خَيْرٍ لَا يَقْطَعُ
 أَمَلًا خُصُوصًا أَنَّهُ سَاطِرٌ إِلَى بِلَدٍ لَمْ يَخْبِرْهُ

(٢) وَرَدَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ عَلَى هَذَا النِّحْوِ «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي
 مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كَلَّوْا مِنْ رِزْقِ رَبِّكَمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ
 وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْعَرَمِ وَبَدَلْنَا مَجْدَهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي
 أَكْلٍ خَطِّ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ » فَهَذَا وَاضِحٌ فِي أَنَّ سَبِيلَ الْعَرَمِ أَصَابَهُمْ

(١) ابْنُ هِشَامٍ ص ١٠٠ س ١٢

(٢) الْأَعْلَى جِزء ١٩ ص ٩٥

وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها . . . (١)

والسليم بأحدى النظريتين المفروضتين في سبب خروج بني الازد من اليمن لا يجدينا نفعاً في المعضلة الجوهرية وهي تعيين زمن حدوث سيل العرم

فلما راجع العربية لا تأتينا بشيء قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة في بلاد اليمن وكان الرأي السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث في عصر قديم في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التي جلت عن سيل العرم إنما هي خرافات وأباطيل واستمرت هذه الطائفة مقنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser في سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكائاً على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلاً ولكن لم يحدث في مدة واحدة بل تكررت نوابه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع الى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة في مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقوال من جهة وإغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاولت الازمان على السد مع هذا الإهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئاً فشيئاً ووهت أركانه قليلاً قليلاً

فلما حدث سيل العرم الأول في سنة ٤٤٧ ب . م الذي استمر الى سنة ٤٥٠ تنبه القوم الى الخطر المحقق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوا من شأنه ولكن لم تعد له منعة القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة رماً طويلاً واکسر ثانياً سنة ٥٣٢ ب . م (٢)

بعد هذه التحقيقات الجلية رآل الشك من النفوس في صحة روايات سيل

(١) تاريخ الامم الاسلامية جزء ١ ص ١٨

(٢) راجع كتاب Zwei Inschriften über den Dammbruch von Mareb

M. d. v. G.

العرم وانحى كل ريب في حدوده ومال بعض المستشرقين الى الجزم بأن نزوح البطون الأزدية حدث بعد سيل العرم^(١)

ولكن من المتعذر على الباحث الذى يحمل في يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الأزدية هاجرت الى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائماً يرى أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونة واضطرت بعض هذه البطون الى ترك وطنها والهجرة الى الأرجاء النائية عنه

على أنه يجيل الى أن المؤرخين أسرفوا في التكبير من شأن سد مأرب وهو لعارفى النتائج التى ترتبت على انكساره وبالغة كبيرة اذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث يقوت في معجم البلدان قديماً ومن مجهودات قريحة جلازر Glaser حديثاً يسقى روبة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون الازد

ويرجح رأينا هذا ما نجده في جميع الروايات التى تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والابهام والقص الظاهر في البيان والتفصيل مع انه حدث حوالى قرن واحد قبل الاسلام وقد تراكت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لان يشك العلماء في صحتها جميعاً ولم يرجعوا عن شكهم الا بعد ان ظهرت أبحاث العالم جلازر Glaser

واذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الاسلام بقرن واحد فإذا يكون شأن الحوادث التى وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر ؟ ..

وهل يمكننا أن نقول على أخبارها التى ذكرت في السيرة وفي الطبرى وفي الواقدي ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا في تاريخ الجاهلية ؟ ...



من المتعذر علينا إذاً أن نعين الزمن الذى وصلت فيه الأوس والخزرج الى جهات يثرب فلنكتف بما قلناه القداماء من أنهما من أزد اليمن وأنه قد وجدت هناك بطون من اليهود قبل وصولها الى يثرب

يقول لنا صاحب الأغاني « فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزولاً في حرار ثم تفرقوا وكلت منهم من لجأ الى عفاء من ارض لا ساكن فيه فزلوا به ومنهم من لجأ الى قرية من قرأها فكأوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزوها بالمدينة في جهد وضيق في الماش ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم الا الاغداق اليسيرة وللزراعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حيناً . . (١)

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوثام والقوق دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم

فكانت السلطة في أيدي اليهود ومواليهم من البطون العربية وكانت الأوس والخزرج تشغل في الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود في قوافلهم التجارية

ويحدثنا السهوي عن حالة اليهود والازد في دور سيادة الوثام والقوق بينهم فيقول : . . وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدي اليهود والصدد والقوة معهم فكشوا . . شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاقدوا ولم يزالوا كذلك زماناً طويلاً وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يظلمهم على دورهم فتمتروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . فأقاموا خائفين أن تجلبهم اليهود حتى نجى منهم مالك بن العجلان . . . (٢)

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٩

(٢) خلاصة الوثام ص ٨٣

ودار الدهر دورته وظهرت القتن والمدلوات بين اليهود والأوس والخزرج
غير أن المصادر العربية لم توافقنا بالأسباب الكافية لهذا التغير واليك ما يقوله
السهودي : وكانت لا تهدي عروس الحيين حتى تدخل على الفيظون ملك اليهود
فيكون هو الذى ينتفضها فتزوجت أخت مالك رجلاً من قومه فيينا . مالك فى
الناسى اذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل
وعنفها فقالت ما يصنع بى غداً أعظم أهدي الى غير زوجى فلما أمسى استمل على
السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيظون وانصرف لدار قومه . . . (١)

ويؤخذ من هذه القصة الملققة أن السهوى وأمثاله لم يكن عندهم إلمام
كاف بحياة العرب فى الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون
من النظم الاجتماعية شيئاً ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ولا يتقادون
إلا لما يدعو اليه الخرق والسفاهة

ولا شك أن قولاً كهذا ليس إلا طعنًا فاحشاً فى قبائل العرب فى الجاهلية
وانكاراً شنيعاً لما هو معروف عنهم من الانفة والفيرة وإياه الضيم والشجاعة والبسالة
الى حد التضحية بكل شىء فى سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة

ومن جهة أخرى فقل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة
لأن يهود الحماز إنما كانوا أصحاب دين مملوئ بأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء
والمنكر والبغى وليس من المقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكرة كهذه
تناقض روح التوراة وتخالف الايمان بالله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة
وانكاراً شديداً من شعبة وأبناء جلده

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جلياً متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من
اليهود فى يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلميعها إنما هو محاولة إخفاء

الحقيقة في حادثة غدر ابن النعجلان بجيرانه وسفكه الدماء الأبرار منهم كما سيأتى
تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهنه تماماً يقصها الطبرى عن طسم وجديس^(١) وذلك
يبدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق في قصصهم ونواريهم^(٢)
ولم يأت ابن هشام والواقدي وصاحب الأغاني بقصة الفيطون بل حدثنا
الأخير بخبر يبعثنا على التسائل والبحث في عوامل التغيير الذى طرأ فجأة على
ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوثام فقال « إن مالك بن النعجلان
رحل الى أبي جبيلة النسائي وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم
فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا
أهلها عليه فما بالك؟ ثم أمره بالمضى الى قومه وقال له اعلمهم أنى سائر اليهم فرجع
مالك بن النعجلان فأخبرهم بأمر أبي جبيلة ثم قال لليهود إن الملك يريد زيارتكم
فاعدوا نزلاً فأعدوه وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام في جمع كثيف حتى قدم
المدينة فنزل بنى حرّض ثم أرسل الى الأوس والنخزج فذكر لهم الذى قدم له
وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤسائهم وأشرفهم وخشى أن لم يمكر بهم أن
يتحصنوا في أطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إليهم فأمر ببناء حائر واسع
فبنى ثم أرسل الى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من
وجوه القوم إلا أنه وجعل الرجل يأتى معه بمخاصته وحشمه رجاء أن يحببهم فلما
اجتمعوا ببابه أمر رجلاً من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ثم يقبلوا كل من
يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حوايه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلونهم رجلاً
رجلاً فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا
على آخرهم

(١) تاريخ الملوك والرسائل طبرى ج ٢ ص ٢٧١

(٢) راجع كتاب الف ليلة وليلة (الجزء الاول)

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن
المجelan والله ما أتخنا اليهود غلبة كما تريد فهل لكم أن أتصنع لهم طعاماً ثم
أرسل في مائة من أشرف من بني من اليهود فإذا جاءوني فاقنلوم جميعاً فقالوا فضل
فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل
فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمنحوه وتعلموا
ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن المجelan
فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ثم إن رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب
مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد...
وصورت اليهود مالكا في بيهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها... فلما
قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما
هاجم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم الى بعض كما
كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودى الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم
فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن
من الأوس والخزرج يتعززون بهم... (١)

وقد يكون من المتعذران يقبل المؤرخ هذه القصة على علائها إذ لا شك في
أن اليهود كانوا يحترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف
فوق ذلك عن يهود الحجاز أنهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء. وانهم ذوو
قوة وبطش فلأن أمراً كهذا وقع فعلاً لا يمكنهم أن يجاروا الأوس والخزرج
ويضموا الى جانبهم في هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتي لم
تكن تضر لليهود شراً

على أن أبا جبيلة هذا الذى يقول صاحب الأغاني انه كان ملكاً لم يكن من

سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بني جفنة ولم يتول عرش غسان من عبر بني جفنة الا أبو جبيلة والحارث الأعرج اللذان يذكر ابن خلدون في موضع من كتابه ان الروم ملكوهما عرش الشام^(١) وان كان يذكر باسم أبي سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وانما كان قائدا ولم يذكر أبو جبيلة البنة^(٢)

وعلى فرض ان أبا جبيلة والحارث بن الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما هي الاسباب التي حلت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الاسرة ثانيا لان آخر ملوك غسان كان من بني جفنة وهو جبلة بن الابهيم الذي أسلم بعد ان فتح للمسلمون الشام ثم ندم ورجع الى دين آباءه ودخل الى بلاد الروم^(٣)

من أجل هذا نرجح ان أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن اذا صححت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فن المحتمل انه كان قائدا ذهب بإيعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الاوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفاً مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التي عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد ان رسمت أقدامهم في البلاد وبعد ان اطمأؤا اليها وانبعثت في قلوبهم للطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم ان الحلف كانت في مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون الا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية في أيدي اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدين أما الآن فقد امتدت أنظارهم الى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والطامع الا أن يتخلصوا

(١) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٢

(٢) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٥

(٣) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨١ - انظر ...

من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكنا الا اذا اعتصموا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ اذا ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود وقد رأوا الفرصة سانحة لمقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقومون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانية ضد اليهودية وبطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون في هذه المحالفة مع الاوس والخزرج بل ويسعون اليها ليتمكنوا بها من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التي قالها حسان بن ثابت في ملوك بني غسان والتي يقول فيها

فقد در عصاة فادمتهم يوما يجلق في الزمان الاول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصعق بالرحيق السلسل
يعشون حتى ما نهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم شم الانوف من الطراز الاول^(١)

ولكن هذا كله لا يثبت صحة ما روى عن أبي جبيلة اذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة التمهيد من جانب ملوك غسان بعد التعرض لتجار البطون النيرية الذين كانوا يجولون في أنحاء سورية ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود وبين بني غسان نظرا للمصالح التجارية العظيمة التي كانت لليهود في بلاد غسان^(٢) وهناك أمر آخر يزيدنا شكاً في صحة قصة أبي جبيلة ذلك أننا لا نجد

(١) الاطاني جزء ١٤ ص ٢ - ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٠

(٢) تلخيص المجيب جزء ٢ ص ١٣ (ابو القاسم الحبيري يرسل قوامه الى بلاد الشام

بينها وبين يوم بسات الذى جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتماداً على الاخبار المفصلة التى وصلتنا عن يوم بسات ان اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت زراعتهم وأطعمهم وأموالهم كاملة غير منقوصة....

ويقرر المؤرخ Graetz ان بطون الاوس والخزرج لم تصارع اليهود بالعداوة والمعصية الا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن اذ لا يتصور أن يضغطوا اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتمصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يستدى عليهم^(١)

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهوده وان واحداً من الاسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز^(٢) وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شئ يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكاييد وتحرض عليهم رعاء الاوس والخزرج ليفتكوا بهم والظاهر ان دولة بنى غسان لم تفعل هذا الا بايعار من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن

وليس غريباً على هذه الدولة أن يحرص عاملها من ملوك غسان على أن يثيروا الفتن والدسائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أنشاء القرن الخامس والسادس ب. م. وأماننا قصة فى كتاب السهمودى تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى فى الجزيرة العربية وهى ان مالك بن العجلان قد ذهب بمد قتاله لليفيطون الى تبع الاصغر

(١) Graetz ج ٢ ص ٩١ وص ٤١٠

(٢) Perceval ج ٢ ص ٦٤٤

فشكا اليه ما كان من أمر يهود يثرب فهاهنا تبع ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خمر حتى يسير الى المدينة وينزل اليهود . . . (١)

ويعلق العالم Wüstenfeld الذى طبع كتاب السهودي على رواية تبع الاصغر بقوله انه كان من اقبال الحبشة المنتصرين في اليمن وانه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لابي جبيلة النسائي (٢)

وانى اقل رواية السهودي عن تبع الاصغر بتحفظ شديد دون أن أمل الى الاعتقاد بصحتها وانما نقلتها لانها توافق أقوال المستشرقين عن الخطة السياسية التي اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية في الاقاليم العربية

ويعتقد العالم Welhausen ان الكفاح بين النصرانية واليهودية في بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة زمن ما ولولا ظهور الاسلام لاصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة مائتة الى قسمين يهودية ونصرانية (٣)

لم يصل اليها من اخبار اليهود في بلاد الحجاز بعد ان خمدت نار الفتنة بينهم وبين بطون الاوس والخزرج الا ما يعرف بيوم بعث

ويحدثنا صاحب الاغانى عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الاوس قد أسندوا أمرهم في يوم بعث الى أبي قيس بن الاسلم الوائلى قصام في حربهم وأكرها على كل أمر حتى شحَب وتغير ولبث أشهر لا يقرب امرأة وكانت الاوس قد استعانت ببني قريظة والنضير في حروبهم التي كانت بينهم وبلغ ذلك الخزي فبعث اليهم ان الاوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب فان ظفروا بكم فذاك

(٣) خلاصة الرواء ص ٨٣

(٢) ويؤيد العالم Wellhausen أقوال Wüstenfeld في مصممه Skizzen und

Vorarbeiten Hef 4 ص ٨ — ١١

(٣) Skizzen 4 ص ١٢

ا تكرهون وان ظفرت لم تم عن الطلب أبداً فتصبروا الى ما تكرهون ويشغلكم
من شأننا ما أتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا
وبين اخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا الى الخزرج انه قد كان الذي
بلفكم والثمت الاوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبداً قالت لهم الخزرج
فان كان ذلك كذلك فاجبشوا الينا برهان تكون في أيدينا فبعثوا اليهم أربعين
غلاماً منهم ففرقهم الخزرج في دورهم فكثروا بذلك مدة ثم ان عمرو بن النعمان
البياضى قال لقومه بياضة ان عامراً أنزلكم منزل سوء بين سيخة ومغازة وانه
والله لا يس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عنب الماء
وكريم النخل ثم راسلهم إما ان تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها واما ان قتل
رهنكم فمما ان يخرجوا من ديارهم قال لهم كعب بن أسد القرظى يا قوم امنعوا
دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هي الا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له
غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك فأرسلوا الى عمرو بن لا نسلم لكم
دورنا وانظروا الذي عاهدتمونا عليه في رهننا فقهوا لنا به فعدا عمرو بن النعمان
على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج قتلهم وأبى عبد الله بن أبى وكن سيداً
حلياً وقال هذا عقوق واثم وبنى فلست مميئنا عليه ولا أحد من قومي أطاعنى
وكان عنده في الرهن سليمان بن أسد القرظى وهو جد محمد بن كعب القرظى فغلى
عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلاحقوا بأهليهم فناولت الاوس الخزرج يوم
قتل الرهن مناوشة ضئيلة

واجتمعت قريظة والصير الى كعب بن أسد أخى بنى عمرو بن قريظة ثم
تأمرؤا أن يعينوا الاوس على الخروج فبعث الى الاوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل
كل أهل بيت من النبى على بيت من قريظة والنضير فزلوا معهم في دورهم
وأرسلوا الى النبى يأمرؤهم بأتيانهم وتماهدوا ألا يسلموم أبداً وأن يقاتلوا
مهم حتى لا يبق منهم أحد فجاءهم النبى فزلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا

الى سائر الاوس في الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم الى ذلك فاجتمع
 الملا منهم واستنحك أمرهم وجدوا في حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة
 منهم بنو ثعلبة وهم من غسان وبنو زعوراء وهم من غسان فلما جمعت بذلك
 الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضي وعمرو بن الجموح
 السلي حتى جاءوا عبد الله بن أبي وقولوا له قد كان الذي بلغك من أمر الأوس
 وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وانا نرى أن تقا لهم فان هزمناهم لم
 يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقاتلتهم قام عبد الله بن أبي خطيبا وقال ان هذا بنى منكم على
 قومكم وعقوق والله ما أحب ان رجلا من جراد لقيناهم وقد بلغني أنهم يقولون
 هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعونا الموت والله اني أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا
 عامتهم واني لأخاف ان قاتلوكم ان يصروا عليكم لبغيتكم عليهم قاتلوا قومكم
 كما كنتم قاتلونهم فاذا ولوا فخلوا عنهم فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا
 عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله صحر ك يا أبا الحارث حين بلغك حلف
 الاوس قريظة والنضير فقال عبد الله والله لا حضركم ابدا ولا أحد اطاعني ابدا
 ولكأني انظر اليك قتيلا فتيلا فتملك أربعة في عباء وتابع عبد الله بن أبي رجال من
 الخزرج منهم عمرو بن الجموح الحرامى واجتمع كلام الخزرج على ان رأسوا عليهم
 عمرو بن النعمان البياضي وولوه أمر حربهم

ولبت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم
 بعض ويرسلون الى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج الى جهينة
 واشجع فكان الذي ذهب الى اتجع ثابت بن قيس بن شمس فأجابوه وأقبلوا اليهم
 وأقبلت جهينة اليهم أيضاً وأرسلت الأوس الى مزينة وذهب حضير الكنائب
 الاشهل الى أبي قيس فقام حضير فاعتمد قوسه فحرضهم وأمرهم بلجد في حربهم

وذكر ما صنعت بهم الخرج من الخيبت واذلال من تخلف من سائر
الأوس في كلام كثير . . .

فأجابه أوس الله بالقي يحب من النصرة والموازرة والجهد في الحرب وأما
الأوس فاجتمعت يومئذ الى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأي فقال
الأوس ان ظفرنا بالخرج لم نبق منهم أحداً ولم قاتلهم كما كنا قاتلهم فقال
حضير يا مشر الأوس ما مقيم الأوس إلا لأنكم تؤسسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيسهم نمرأ وجملوا يأكلون وحضير
الكتائب جالس وعليه بردة له قد استمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدنو الى
النمر غضباً وحقاً قال يا قوم اعتدوا لأبي قيس بن الاسلت قال لم أبو قيس
لا أقبل ذلك فاني لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءوا بريستي وجعلوا
ينظرون الى حضير واعتزاله اكلمهم واستغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت
خصباه من تحت البرد فاذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخايل قلصتاً غيظاً
وغضباً واذا رأى منهم ما يجب من الجهد والتشجيع في الحرب علنا للحلما وأجابت
الى ذلك أوس مناه وجعلوا في الموازرة والمظاهرة وقدمت مزينة على الاوس
فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صفي^(١) الى أبي قيس بن الاسلت فقالوا
قد جاءتنا مزينة واجتمع البنا من أهل يثرب ما لا قبل للخرج به فما رأى ان
نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية قال أبو قيس بل البقية قل أبو عامر والله
لو ددت أن مكاتهم ثعلبا ضابحا قال أبو قيس اقلوم حتى يقولوا بربنا كلمة
كأولوا يقولونها اذا غلبوا فنشاجروا في ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خرا أو
يظهر ويهدم مزاحا ألم عبد الله بن أبي قيسوا شهرين يعدون ويستعدون ثم التقوا
يبعث وتخلف عن الاوس بنو حارة بن الحارث فبعثوا الى الخرج إنا والله

(١) وكان قد ترم في الماهلية وليس السوح وكان يقال له الراهب . ابن هشام جزء

ما تريد قتالكم فبعثوا اليهم أن ابعثوا الينا برهن منكم يكونون في أيدينا فبعثوا اليهم اثني عشر رجلا منهم خديج وبعث من أموال بني قريظة فيها مزرعة يقال لها قوري فلذلك تدعى بمات الحرب وحشد الحيان فلم يتخلف عنهم الا من لا ذكر له ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك في يوم التقوا فيه فلما رأته الاوس والخزرج أعظموم وقلوا لحضير يا أبا أسيد لو حاجزت القوم وبعثت الى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت في يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر الى القوم ونظرت اليهم الموت قبل ذلك . ثم حمل وحلوا فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الاوس حين وجدوا من السلاح قولوا مصعدين في حرة قوري نحو العريض وذلك وجه طريق نجد قتل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار الا أن نجدا سنت أي مجذب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رجمه ففذه ونزل وصاح واعقراء والله لا أريم حتى أقتل فلن شتم يامعتر الاوس أن تسلموني فافعلوا فتقطعت عليه الاوس وقام على رأسه غلامان من بني عبد الاشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدري من رمى به الا ان بني قريظة تزعم انه سهم رجل يقال له أبو لبابة فقتله فينا عبد الله ابن أبي يتردد على بغلة له قريبا من بمات يتحسس أخبار القوم اذ طلع عليه بعمر بن النعمان ميتا في عاءة له يحمله أربعة الى داره فلما رآه عبد الله بن أبي قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق وبال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس السلاح وصاح صائح يامعتر الاوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارم خير من جوار الثعالب فتساهت الاوس وكفت عن سلبهم بعد إلتحان فيهم وسلبتهم قريظة والنضير وجعلت الاوس تحرق على الخروج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الاشلي حتى وقف على باب بني سلمة وأجارهم وأوالم جراء لهم يوم الرعل وكان للخزرج على الاوس يوم يقال له يوم مفلس ومصرس وكان سعد ابن معاذ حمل يومئذ جريحا الى عمرو بن الجحوح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل

وهو على الاوس من القطع والحرق فكافأه سعد بمثل ذلك في يوم بعث وأقسم كعب بن أسد القرظي ليزلن عبد الله بن أبي ليحلن رأسه تحت مزاحم فتاده كعب انزل يا عدو الله أنشدك الله وما خذلت عنكم فسأل عما قال فوجده حقاً فرجع عنه واجتمعت الاوس على أن تهدم مزاحماً أطم عبد الله بن أبي وحلف حضير ليهدمه فكلّم فيه فأمرهم أن يرشوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن ايس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بني الحارث وهي النعمة التي كافأه بها ثابت في الاسلام يوم بني قريظة ^(١)

وخرج حضير الكنائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الاسلم بعد المزة فقال له حضير يا أبا قيس ان رأيت ان تأتي الخزرج قصر اقصر اودارا دارا قتل ونهدم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا فعل ذلك فغضب حضير وقال ما صميم الاوس الا لأنكم تؤسسون الامر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمنلها ما أقولناها ثم انصرف الى الاوس فأمرهم بالرجوع الى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جروحاً شديدة ثم مات من الجراح التي كانت به

وكان يهودى أعمى من بني قريظة يومئذ في أطم من أطامهم فقال لابنه له أشرفى على الاطم فانظرى ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع فى أعلى قورى وأسمع قاتلاً يقول اضربوا يا آل الخزرج فقال الدولة اذاً على الاوس لا خير فى البقاء ثم قال ماذا تسمعين قالت أسمع رجلاً يقولون يا آل الاوس ورجلاً يقولون يا آل الخزرج قال الآن حى القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفى فاصمى فأشرفت قالت أسمع قوما يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل. قال تلك بنو عبد الاشهل ظفرت . . . ثم وثب فرحاً نحو باب الاطم فضرب رأسه بحاق بابيه وكان من حجارة فسقط فمات

وقال خفاف بن ندة يرى حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :
 لو ان المنايا حنن عن ذى مهابة لمهن حضيراً يوم أغلق دافعا
 أطاف به حتى اذا اقبل جنه تبوأ منه منزلا متاعا . . .

اتانى حديث فكذبته وقيل خليك في للرسم
 فياعين أبكى حضير الندى حضير الكتائب والجلس
 ويوم شديد اوار الحديد تقطع منه عرى الانفس
 صليت به وعليك الحديد ما بين سلم الى الارص
 فأودى بنفسك يوم الوغى وتقى ثيابك لم تدنس . . . (١)

ولما كانت حوادث هذا اليوم قد جرت قبيل ظهور الاسلام بخمس سنوات
 قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا في ميدان
 الوغى قد أدركوا الاسلام حتى كان لبعضهم أثر ظاهر في حوادث المدينة بعد
 هجرة النبي محمد اليها فلا شك أنه يوم حقيق وأن أغلب ما قلنا من أخباره صحيح
 ولبخارى حديث يدل على الوقع العظيم الذى كان ليوم بعث في نفوس أهل
 يثرب قالت عائشة دخل على رسول الله وعندي جاريتان تننيان بفناء بعث
 فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فأنهزنى وقال مرة الشيطان
 عند رسول الله (٢)

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكاتمهم بين القبائل العربية حتى

(١) الاغانى جزء ١٥ ص ١٠٤ - ١٥٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٢٥

ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً وكانت كل منهما تبحث
في أن تميلهم اليها ليساعدوها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم
كانوا كالأعراب في قسوتهم وغفلتهم المروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بنى
النضير وقرية أنحنوا في بنى قينقاع ومرتقوا شملهم بسبب انضمامهم الى بنى الخزرج
ليكونوا عوناً لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استناده الشديد من تلك المعاملة الغليظة
لبنى قينقاع فذكر ما يب بنى النضير وقرية وكان الربيع من شعراء اليهود من
بنى قرية وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعث وكان حليفاً للخزرج هو وقومه
قال :

سمت وأمسيت رهن الفراء ش من جرم قومي ومن مكرم
ومن سقته الرأي بعد النهي وعيب الرساد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحلي لم يتعدوا ولم يظلم
ولكن قومي أطاعوا الفراء حتى تمكس أهل الدم
فاودى السفيه رأى الحلي وما اقتصر الأمر لم يرم... (١)

وكان من نتائج يوم بعث أن ضعف روح المدوان والحقد في نفوس البطون
البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتدقون لذة الراحة وهناءة العيش
وصفاء البال

وكانوا كلما هم أحد هم أن يصب زيتاً حامياً على نار العداوة الكامنة في

(١) الاغانى جزء ٢١ ص ٦٤ واما ابن سلام الجعفي صاحب طبقات الشعراء فانه يقول
ان الربيع بن ابي الحقيق من بنى النضير (ص ١١٠ طبع مصر) ونحن رجح رأى الجعفي
على رأى صاحب الاغانى لا انضمامه الى آل بني النضير

القلوب ليزيد في ضرامها ويعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لكف يده حتى لا تسلب السيوف من اغمارها وعلى العموم فإن يوم بعثت قد أضفت بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل إلى الاتحاد حتى أرادت فيما يقال أن تملك عليها ملكاً من بني الخزرج كما يحدثنا ابن هشام « أن قوم عبد الله بن أبي قد نظفوا له الخرز ليتوجه ثم يملكوه عليهم ثم جاء رسول الله إلى المدينة وانصرف القوم عن عبد الله ورأى أن الرسول قد استلبه ملكاً فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرّاً على نفاق وضمن وكان لا يختلف عليه في شرفه اثنان لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . . . (١)

فكان قلوب بني يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد ستمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وتسمرت بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوجه عنايتهم إلى ما هو أكثر خيراً وأعظم نقصاً

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

الباب الرابع

أحوال العرب الاجتماعية والريفية والسياسية في بلاد الحجاز قبل ظهور الاسلام

مسيرة النمو الادبي والاجتماعي للقبائل السياسية — بسط نفوذ الدين اليهودي في الحجاز — الفياضة الاسرائيلية لا تميل الى ادغام الامم على اعتناقها — العوامل التي حالت دون انتشار اليهودية في الحجاز — قصص ابن هشام في مبلغ تأثير اليهود في عقيدة العرب — طعن بعض المستشرقين في صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود — رد هذا الطعن بالادلة التاريخية والبحث بمس المستشرقين — عادة المختل عند العرب واليهود وهل اخدها العرب من اليهود ؟ — التمسير (ملة ابراهيم حنيفا) وطاعة المختار — الحنيفية في بلاد الحجاز — الجدل بين المستشرقين في هذا الموضوع — زيد بن عمرو بن ثعلبة والحنيفية — النساء عند العرب واليهود — الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها بالثقافة العبرية — ضعف تأثير الديانة المسيحية في قلوب اهل الحجاز — حالة لليهود الاجتماعية والدينية بين العرب في الجاهلية — الحالة عند قبائل الحجاز قبل ظهور الاسلام — يوم الفجار وتناحيه — النهضة الفكرية في بلاد الحجاز قبل ظهور الاسلام — قس بن ساعدة — امية بن ابي الصلت — استبعاد القلوب العربية لقبول ديانة سماوية جديدة

اذا أنعمنا النظر في التاريخ العام نجد النمو الادبي والتفكير الفكري في أمة من الأمم يمتد ويسمو الى الدرجات الزميلة مع امتداد النمو السياسي وازدياد الرقي الى ذرى المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط تينا فسينا ويتدهور تدريجيا كلما تدهورت القوة المادية في تلك الأمة وضعف سلطانها

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الامم والشعوب ولكننا لانجدها حين نبحث عنها في يهود الجزيرة العربية اذ بعد ان انتصر الحبشيون على ملوك

جهد اليهود و بعد ان أظهر أبو جيبلة الأوس والخزرج على يهود يثرب — اذا فرضنا صحة هذه الرواية — يقي سلطانهم الفكرى بوجه عام ونفوذهم الدينى بوجه خاص قريين سليمان لم تنل منها قوة أعدائهم الا قليلا

ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى على العرب حتى تبلغ منزلة أرق مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود^(١)

ولسنا نعرف فى تاريخ اليهود أنهم أرغوا بقوة السيف أمة من الامم على اعتناق اليهودية اذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودى يوحنا هوركاوس طوائف يبي أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد ان استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون يبي أدوم إخوة لهم فى الجنسية اذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة فى العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغابهم اياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا العارق الدينى أيضاً...^(٢)

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هى خلاصة القانون التلمودى بقائمه وتقاليد وطقوسه وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة قرون معينة والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعى والرقى الروحانى الذى طمع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف فى المصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا

(١) راجع التلمود كتاب *مذبح* لا وكتاب *يבמות* *סד*

(٢) Klausner ج ٢ ص ٧٢ وكتاب Simhoni ج ٢ ص ١٠٣

أن قبلوا جوهريات صف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودي وعقائده لم يؤذن لهم اعتناق اليهودية ولا شك أن هذا كل من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور النصرانية فإن طوائف اليونان والسرمان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلي وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بلبادى الأساسية ورفضت ما لا ياسب روحها القوي ولا يتفق مع تعاليمها القديمة

كذلك وجدت هذه النفسية في الجزيرة العربية اذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الاصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تهربهم الى الله بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم قبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفصل بعضها على بعض على أن المسيحيين والمسلمين نحو هذا النحوم كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الاسلام اذ لم يرص المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء في الانجيل وينكر ما لم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا في حظيرة الاسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك ان التوراة والتلمود كلنا الانسان بتكاليف صعبة وربطاه بتقاليد كثيرة لم يألها فلم يستطع العربي الفنى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعسر على نفسه أن قبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر . وهو

ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الارض ، ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم . لهذا لا يقولون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلي . (راجع آية — ١ — وما بعدها من الاصحاح ١٤ ثنية) — اه

كنا قد ذكرنا في الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود في يثرب وخيبر ووادي القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر في أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا . كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز واليمن قاصدة الى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون الى الاسواق اليهودية في شمال الحجاز ليتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كل اليهود يعرضون بضاعتهم في الاسواق التي كان العرب يقيمونها في جهات شتى فينتج من التعاون الاقتصادي والاختلاط الاجتماعي تبادل في الآراء وجدال في الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الاعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يدكرون معائب الوثنيين ويمزقون أعراض الأصنام جهرا كما يتحدث ابن هشام اذ يقول « كان سلمة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني الأشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لي مضطجع فيها ببناء أهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان سنا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم

يسخلونه اياه فيظنونونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده الى مكة والمين.... (١)



يوجد عند بعض الباحثين ميل الى اعتقاد أن اليهود تمسكوا بنشر قصص التوراة والتلويح بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر رديسة لفقه اليهود للعرب تزلفاً اليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم « ويقول أحد هؤلاء العلماء : « . . . ان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة اذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا لهم أتم اخواننا ونحن وأتم صنوان . . . وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبتلون جهم في اشراق العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجحت فيهم هذه الأكتوبة التي كان العرب أجمل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي محمد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقل العرب انما هو يدعوهم الى ملة ابراهيم . . . (٢)

والتأمل في هذه النظرية التي يتم منها رائحة الطعن في ديانة معلومة يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتي .

- (١) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الاقاصيص المذكورة في التوراة والتلويح كما هي دون أن يزيدها عليها شيئاً من عند أنفسهم
- (٢) اذا وجد الميل عند بعض المستشرقين الى انكار وجود الآباء الأقدمين لبني اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب قائمهم لا يستطيعون أن

(١) ابي هشام جزء ١ ص ٢١٣

(٢) مقالة في الاسلام من كتب المبشرين ص ١٨

ينكروا وجود قبائل بني اسرائيل وقبائل بني اسماعيل لأن التوراة نصت على وجودها في طورسينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طورسينا والحجاز

وقد عذرت على نص في التوراة يؤيد نظريتي في هذا الصدد ولكنني مضطرا إلى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لأن تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت في تفسيرها الحقيقي وهذا هو النص العبري : *וישכנו בני ישראל مع אחיהם* (دبرישيم ٢٧) *מחודדה עד שור אשר על פני סעדים באכה אשורה עד פני כל אחי נפר* (١) ومعناه : ونزلت (بطون بني اسماعيل) مع نشأتها (٢) بين أخوتها واستوطنت البلاد من الحولة إلى طريق القوافل بين مصر والعراق

(٣) قرر علماء الافرنج جميعاً أن علاقة بطون بني اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطورسينا أقرب منها إلى قبائل بني اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح أنه لم تكن لليهود الحجاز ضرورة لاختلاق الأباطيل (٣)

وأما الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النحار فيقول : لو أن اليهود كانوا في تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطاً بينهم وبين قوم يرحون منهم نفساً أو يخشون منهم صرراً أو حيقاً لكان الأجدر بذلك القرابة الرومان والفرس أى الأمم التي تعاقب حكمها عليهم في الأزمنة المختلفة. ولكنكم لم ترحهم تبتاً من ذلك ودعوى أنهم يعملون ذلك مع الأمم كلما رحوا نفعاً أو خافوا حيقاً دعوى لا نظن أن من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

(١) التكملة ص ٢٥ / ١٨

(٢) راجع في نهاية هذا الباب عن النساء ص ٨١

(٣) Israel's settlement in Canaan ٢٤ — ٢٧ ص

وأعجب ما يضجبه له السامع لأولئك الطاعنين في اليهود بهذه الفرية أن يكون اليهود يحترعون تلك الاسطورة زلفاً لقريش أو المدنانيين في حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش نجمل الأولين يرهبون سطوة الآخرين ويرجون خيبرم لبعده الشقة بين مواطني الفريقين ولم يمهّد أحد ولم يروا في القديم ولا في الحديث أن اليهود استماتوا قريشاً في حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التي تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بأحقة القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يحترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتأخونهم ويشاركونهم في المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار. فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم ويحترعون أسطورة يلقونها تربطهم بقوم بعيدى الدار لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً

نقى أمر آخر له أهمية في هذا الموضوع: وهو أن أسفار التوراة ترجمت الى اليونانية في عهد بطليموس فيلادلتوس. وهو ثاني ملك من البطالسة في مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفي صلب تلك الترجمة كل النصوص التي تنص على ارتباط العرب الاممائية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبل رحيل يهود يثرب الى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون. فهل كان اليهود يعلمون ما مستحدثه الأيام وانهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون الى بلاد العرب ويتخفونها دار مقام لهم. ثم أنهم سوف يحتاجون الى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم في الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار قاعدوا ذلك قبل ترجمة التوراة الى اليونانية وكذبوا تلك الأكنوبة سلفاً وقبل الاحتياج اليها بفرون متطاولة. اذا قل أولئك الطاعنون على اليهود: نعم، فليس لدينا ما نجيهم به سوى قول القائل:

من كل ما يخلق ما يقو ل فيخلق فيه قليلة اه —

ومعها يكن من الأمر فإن اتصال العرب باليهود قد أدى الى تغيير جوهرى
فى عقلية المضرو والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم
الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية الى العربية
وإنى أشير هنا الى بعض التغييرات التى يعتقد العلماء انها ظهرت فى الحجاز
بعد وصول اليهود اليها فى طورم الثانى ...

لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت
شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم
(Wellhausen) ^(١) بوجود قبائل متوحشة حتى فى أفريقيا كانت تألف
هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا رأى لأن النوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد
جاءوا بالختان من موطنهم الاصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت دائمة
عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء

غير أن هناك اعتباراً آخر لم يمن العلماء نظرم فى فحصه ربما يرشدنا الى
اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان

كان الاصطلاح « مله ابراهيم حنيفا » ^(٢) شائعاً عند العرب قبل ظهور
الاسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان
تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود الى اقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ولكن أجتهد
فى أن أصل الى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

(١) Skizzen & Vorarbeiten H III ١٤٥ ص

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢١

يعرف العضو التناسلي سد ختانه في العبرية باسم *مِلَّة* (מילה) كما أن له اسماً خاصاً قبل ختانه وهو غرلة

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلي^(١) قد عبر الناموس الديني عن كل من اختن أنه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل *דבריו של אברהם אבינו* ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختن التعبير « *ملة ابراهيم* » وهذا اللفظ يقوله العاخر للطفل عند ما يعذره والحاضرون يؤمنون (*עונים אמר*)

ولكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدي الى الايمان باليهودية لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توفرها كاعلان النحول في الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقد أطلق اليهود على كل من يختن دون أن يعتنق اليهودية اسم *حنيف* *חניף*^(٢) غير الصالح أى الختان الغير الوافى بالشروط اليهودية وقد جاء في لسان العرب وكان في الجاهلية يقال من اختن وحج البيت حنيف اقراء الحنيف من سائتة الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك كما سمى الغراب أعور ونحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية ويقال اختن

وفيه أيضاً : أبو عمرو الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف في الأصل هو المائل الى الشركا هو عند اليهود في لثهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشيء وضده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على *ملة ابراهيم* استعمالاً للفظ في أحد معنييه^(٣) فيحتمل أن اليهود أطلقوا على العرب التي شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن

(١) راجع التوراة سفر التكوين فصل ١٧ آية ١١ والتلمود كتاب *برכות* ص ٣١

(٢) لهذه الكلمة معنى الماني بالصيغة مثل : يخلق أو اقترف أمناً أو تدال وتدا من

(٣) لسان العرب جزء ١٠ ص ٤٠٣

توضح لم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى في معناه الاصل^(١)
لو اتضحت صحة هذا الرأي لكان فيه برهان قاطع على ان عادة الختان قد
سرت الى العرب من اليهود في الدور الثاني

يجتهد العالم (Wellhausen) في أن يبرهن ان الخنيفية كانت مذهباً
نصرانياً ذائع الصيت^(٢) في بلاد العرب ولكن Leszynsky يمارضه^(٣) ويقول
ان الخنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص
من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية
ودخل بعضهم في اليهودية ودخل بعض آخر في النصرانية وبقى جماعة منهم غير
متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم
يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً فانه صريح في أن الخنيفية لم تكن
واحداً منها

وقد جاء لبعض الافراد من الخنيفين ذكر في سيرة ابن هشام أكتفى بنقل
ما يقوله عن واحد منهم « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية
ولا نصرانية وطرق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذمائم التي تذبح على
الأوثان ونهى عن قتل المودة وقال أعبد رب ابراهيم وباداً قومه بمبيب مام
عليه . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسد ظهره الى الكعبة
ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح معكم على دين
ابراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوحوه أحب اليك عبدتك ولكنى
لا أعلمه . . . (٤)

(١) دورى ص ١٩٠

(٢) Skizzen H IV ١٩٢

(٣) Die Juden zu Medina ٤٢ ص

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسيء نشأ من تأثير اليهود على العرب^(١)

يحدثنا ابن هشام بأن « النساء هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر^(٢) »

والعرب في موضوع النساء كلام طويل عريض^(٣) وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نساء بالمرية ويميلون الى القول بما كان معروفاً عند اليهود من ان النامى* (١٠٣٣) أى الرئيس الدينى عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة^(٤)

وأضيف الى ذلك أن النامى* (١٠٣٣) هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بني اسرائيل منذ أزمنة غابرة^(٥)

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسا الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم التلمس وهو حذيفة بن عبد بن قيس بن عدى بن عامر بن نسلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من حجاج اجتماعت اليه فحرم الا شهر الحرم الأربعة رجياً وذا القعدة وذا الحجة والحرم فاذا

(١) Die Israeliten zu Mekka ١٦٨ — ١٧٤

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) أدب العرب تأليف محمد نضال الجارم ص ٤٣ — ٤٦

(٤) ראש השנה דף ק

(٥) سفر الخروج فصل ٣٤ آية ٣١ وسفر عدد فصل ٧ آية ٣

أراد أن يخل منها شيئاً أحل الحريم فأحله ونحرم مكانه صفر فحرموه ليؤاقتوا عدة
الأربعة الأشهر الحرم فلذا أرادوا الصدقة فبهم فقال أنى قد أخلت لكم أحد
الصفرين الأول ونسأت الآخر للعام المقبل . . . (١)

هذه أقوال ابن هشام عن النساء وهى توضح قبل كل شيء أن وظيفة النساء
أدخلت على العرب فى عصر غير بعيد من ظهور الاسلام ثم لفت وجود هذه
الوظيفة فى بنى كنانة يرشدنا الى سؤال : هل كان لبطن بنى كنانة الذى اصدر
النساء علاقة يبطون بنى كنانة المتهودة التى سكنت جنوبى مكة ثم لماذا
وجبت المقاومة للنصرانية فى اليمن والنجاشى التى قضى على ذى نواس من جهة
النساء وحدم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن هؤلاء النساء علاقة
باليهودية ؟ . . .

ولكنى أكتفى بما أشرت اليك من العلاقة بين كنانة والنساء وكنانة واليهود
ومقاومة النساء للنجاشى بسبب عطفهم على القضية اليهودية فى الجزيرة دون أن
أجزم فيها برأى

ويؤيد أبو معتز البلخى (٢) وأبو الريحانى البيرونى (٣) والمقربرى (٤) رأينا
فى النساء ويقولون أن العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب
من مائتى سنة وأخذوا يعملون بالكبس ما يشاكل فعل اليهود من الحاق فضل
ما بين سنتهم ومئة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسء أى
التأخير غير أنهم خالفوا اليهود فى بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكسبون تسع
عشرة سنة قرية بسبعة أشهر قرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس

(١) ابن هشام حرم ١ ص ٤٥

(٢) كتاب الالوف

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

أربعا وعشرين سنة قرية باثني عشر شهراً قرىاً

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير
يحدثنا ابن هشام « كانت صوفة تدفع بالناس من حرفة وتبجيز لهم إذا انفردوا
من ربي فلذا كان يوم النفر أتوا رمى الجمار ورجل من صوفة يرمى للناس ما يرمون
حتى يرمى فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرى ملك
فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه
بالحجارة ويستعملونه بذلك ويقولون له وبلك قم فارم فيأتي عليهم حتى إذا مالت
الشمس قام فرمى ورعى الناس وكل من آخرم الذي قام عليه الاسلام
كرب بن صفوان . . . (١)

وأما صوفة بالعبيرية فإن معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما قلناه من
كتاب السيرة عن الصوفة (٦٩٥) بصر أو الشخص الذي يبصر في الشؤون
الدينية لأنه أصدر الأمر حين مسابقة الاقضية وكان أول من رمى الجمار بالحجارة
أو الحصى في وادي منى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بني اسرائيل في عصور جاهليتها لاننا
نعلم من آيات نبوات أنسبيا أن منى (٦٥) كان الها للمخمر « وأما الذين تركوا
الرب ونسوا جبل قدسى فرتموا الى جد (٢) مائدة وملأوا لمنى خمرًا ممزوجًا (٣)
وكذلك يرى العالم دورى أن استعمال العرب لاسماء الأسبوع تأثيراً يهودياً (٤)
اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الاسبوع دون أن يأتي من

(١) ابن هشام ج ١ ص ١١٣

(٢) من الاصنام الكسائية لله الحد والمط وقد أحطت تراجم التوراة العربية في
تفسير هذه الآية : راجع ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ص ١٠٧٠

(٣) أنسبيا ص ٦٥ آية ١١

(٤) ص ١٨٠ Die Israeliten zu Mekka

تأثير اليهود كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروية وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב סבב, ערב חג המנוחה (١)

ومما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فأنى أميل الى الاحتراس والتحفظ لئلا نصل الى المبالغة والمجازفة في الحقائق التاريخية

على أن هناك مقياساً آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من أن الصلة الدموية في العنصر والتقارب في اللغة والأخلاق هو أساس التشابه بين العقليّة واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا في كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون في البحث فيقولون مثلاً أن مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء، ونشاط قد جاءت الى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز اذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شيء الى مركزها الجغرافي ووقوعها في وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم إن التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سبباً في ضلال بعض المستشرقين حتى خيل اليهم أن أهل مكة واليهود قدّوا من أديم واحد وفتوا من نبتة واحدة فأخذوا يذهبون في المبالغات والظنون مدهاب عجيبة ونهم دوزي (٢) الذي يجتهد في أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بني شمعون وإن تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا ورائة اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه اذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فإن ذلك

(١) راجع التلمود كتاب אבות פ' ה' וכתב פסחים ק"ב

(٢) ص ٤٠ — ١٨٥ Die Israeliten

يرجع الى أن مكة كانت أرق وأرفع من بقية البلاد في سهل الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب في الجاهلية .
ومع أنى أستنكر استنكاراً شديداً ما استنتج دوزى في أمر حرم مكة وعلاقته ببطون بنى قحطان فان هناك أمراً يستوقف الأنظار وهو انه كثيراً ما يحددنا ابن هشام عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة في تقديسه الخ^(١) . . . بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأورشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل إلينا أثناء قراءة كتاب السيرة لابن هشام في هذه الموضوعات اننا قرأنا مصحف التلمود القصصية . . .

تجهت طائفة من أنصار Wellhausen في أن تبرهن على أن تأثير النصرانية في النفوس العربية التجارية كان أقوى من تأثير اليهودية مستندين الى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود^(٢) ولكن هذا غير صحيح لان الكثرة النصرانية العربية انما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما في داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والفكرية فقد كانت الاكثرية في جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب الا عدد قليل جداً

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصلة قوية جداً بين مكة ويثرب التي كانت تكاد تعتبر «وطناً خالصاً لليهود»

(١) ١٠٦ / ١٣٤ / ١٨١ من ابن هشام جزء ١ والمحاوي أحاديث في هذا الموضوع منها « وقال الرسول يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمه الله الى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لي الا ساعة من نهار هو حرام بحرمه الله الى يوم القيامة لا يصعد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطه الا من عرفها ولا يحتل خلاه . . . جزء ٢ ص ٣٠١

(٢) ص ١٩٧ III Skizzen Heft

ويكفيها في قويض مزاعم هؤلاء المستشرقين أننا نجد أكثر من ثلث القريّات يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهجم بأقوالهم وازد عليها فطورا يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيبا شديداً فإن ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة في قفوس العرب وعلى الصلة المثينة التي كانت تربطهم بهم لا ننكر على النصرانية تأثيرها في العرب بوجه عام ولكنه على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للغزو اليهودي الذي كان واضحا جليا في كل ناحية من نواحي الحياة الروحية والمادية . . .

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث في كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهي ما يزعمونه من ان اليهود كانوا محقرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام^(١) ونحن نميل الى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لان العربي في الجاهلية لم يكن يفهم البغض والصفينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الاستاذ النجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محقرين لما اهتم رسول الله بمحاللتهم ولما أتهم أمرهم يوم الأحزاب حين ألوا عنه ولما قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على محاللتهم عليه واتيانهم بالأحزاب لحربه . . . اهـ

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يملون ولكن ذلك لم يؤد الى احتقار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربي القوي طبع على حب الحرية والغيرة على الكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأدينتهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقا بينهم من وجهة الحقوق السياسية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرقى قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بني الضير ويبيكهم في قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان رعيّا من زعماء اليهود ويقول :

سفاني فرواني كيتا مدامة على ظنا مني سلام بن مشكم
تخبرته أهل المدينة واحدا نسوام فلم أعين ولم أتنم
فلما قضى الليل قلت ولم أكن لأفرحه أبتر بعرف ومغم
وان أبا غنم يجود وداره يثرب مأوى كل أبيض خضرم^(١)

ولا يمكن أن يعول على ما يؤخذ من القصص والروايات التي جاءت بعد فتور
الأحوال بين اليهود والأنصار أو يستدل به على مكانة اليهود في نفوس العرب
زمن الجاهلية

كان اليهود موضع الاحترام عند الأشراف والنقباء من قريش وكان رسول
الاسلام ينظر اليهم هذه النظرة من التبجيل الى زمن طويل بعد مبعثه كما سنوضح
ذلك فيما بعد

وكان العرب يجهلون الديانة اليهودية ويقولون لليهود « لكم علم ليس لنا »^(٢)
وقد يحدثنا ابن هشام أن رجلا من يهود الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا
قبيل الاسلام بسين فخل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلا قط لا يصلح الحمص
أفضل منه فأقم عندنا فكنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان
فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم فيقول
صاعا من تمر أو قدّين من شمر فخرجها ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيسقي لنا
والله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة ونسقي قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين
ولا ثلاثا...^(٣)

والذي يمكننا ان نستنتجه من هذه القصة الخرافية ان مؤرخي العرب كانوا
يستقنون ان الديانة اليهودية واقوامها كانوا موضع الاحترام في الجاهلية

(١) الاطاني جزء ٦ ص ٩٧

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠١

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠٤

وكثف من نساء العرب من تنذر اذا ولت وعش ولها ان تهوده لان اليهود كانوا في نظرم أهل علم وكتاب^(١)



قبيل ظهور الاسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بمات دامت سنين طويلة كذلك حدث في جهة مكة حرب ضروس عرفت بأيام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة في أربعة أدوار يقال لها الفجارات الاربعة

أما الفجار الاول فكان عمر النبي محمد فيه عشر سنين وسببه ان بدر ابن معشر النضاري كان له مجلس يجلس فيه بسوق مكاز ويقتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه اعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا . وسبب الفجار الثاني ان امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق مكاز فطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فاقتتلوا . . . وسبب الفجار الثالث انه كان لرجل من بني عامر دين على رجل كناني فاطله فجرت بينهما محاسبة فاقتتل الحيان^(٢)

وكانت آخرها لخمار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان وكان الذي هاجها ان عروة الرجال من بني هوازن اجاز لطيمة (وهي الجمال التي تحمل المسك) للثعنان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى اذا

(١) ديانات العرب في الجامعة ص ٢٠١

(٢) من تعليقات الشيخ محمود سيد الطهطاوى على كتاب السيرة لابن هشام جزء ١

كان بنين ذى طلال بالعالية وثب عليه فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سى
الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشمر أن البراء قد قتل ثم بانهم
الظهر فاتبعهم فادركهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم
فأمسكت عنهم هوازن ثم التفتوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل
من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول
الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامى أى
أرد عليهم نبل عدوم إذا رموم بها . . . (١)

وأما الذى نقلناه عن أيلم الفجار فيحتمل أن يكون من المال المباشرة
والقرية لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن

ويلوح لى أن النضال الشديد الذى ظهر بين قبائل الحجاز فى شماله وجنوبه
بدل على أنه وجد فى القرن السادس ب. م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز
كان كل واحد منهم يطمح أن يستأثر بالحكم لينمكن من أن يشيد أركان مملكة
جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافهم وزاد فى المصاعب والمتاعب
التي كانت تحول بين كل واحد منهم وبين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت
فيه شروط لم تتوافر فى غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتجه اتجاهاً واحداً ويقترب
بعضها من بعض الى أن امتزجت فى نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة
ويفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض . . .

وقبيل ظهور الاسلام وجدت فى الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان
الاضطراب من علاماتها وقبيل الاسلام أيضاً أصبحت القلوب صالحة لقبول

دعوة دينية جديدة. وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهراً عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغاني أن قس بن ساعدة الأيادي كان يتكلم عند خطبته على سيف أزعصا ويقول « مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلمكم زمانه وأدرككم قطوبي لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه^(١) »

ومع أن النصرانية واليهودية قد أوجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية فانهما لم تغلحا في ادخال تغيير جوهري في النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية في نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الأخرى

واننا نستقد أنه لو ظهر هناك يهودى ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب الى الدخول في دين جديد يشبه اليهودية في جوهره ويبقى عربياً في تقاليده وروحه لكأنت دعوته قد وجدت آذاناً مصغية وقلوباً واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الخفيفين أو غيرهم دعا لتوحيد الآله مع ابقاء النظم العربية الاجتماعية التليدة لكأنت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة يقول صاحب الأغاني ان أمية بن أبي الصلت « كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبدًا وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والخليفة وحرم الحر وشك في الأوثان وكان محققاً والنفس الدين وطمع في السبوة لانه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك . . .^(٢) »

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يجتهدوا على أن يقادوا بحياتهم

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٤٠

(٢) الاغانى جزء ٣ ص ١٧٩

في سبيل الدعوة الدينية و بقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً
عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية الى أن ظهر رجل رفع علم النبوة وصار غرة
ناصعة في جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقى الزمان وأرغم التاريخ على أن ينحون نحواً
جديداً . . .

وكان اسمه محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة .

الباب الخامس

مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية

مبعث الرسول — كيف يكون المبعث في سيرة الانبياء ؟ طريقة المبعث عند رجال العلم ورجال الدين — الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد قبل هجرته الى يثرب — هل سكن اليهود في مدينة مكة قبيل الهجرة — رأى الاب المستشرق لامنس في هذا الموضوع تقسيم العالم Noeldke للقرآن الكريم الى اربعة اقسام — الآيات القرآنية الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية — ذكر الآيات القرآنية الاولى لموسى وسردها بعض انباء بني اسرائيل في مصر — رواية احكام رسول الله وبنو قريش الى يهود يثرب — اذتياب بعض المستشرقين في صحة هذه القصة الخطيرة — رأى المؤلف في هذا الموضوع — اضطهاد أهل مكة للمسلمين — نزوح مكة من المسلمين الى الحبشة — لماذا لم يتجه المسلمون الى اقليم من اقالييم العرب أو الى يهود يثرب ؟ سياسة الحبشة في بلاد العرب — عرض الرسول نفسه على العرب في المواسم — ردة الرسول الى الطائف — مساندة الرسول لشذائعه والصحاب في سبيل نشر دعوته — التقاء الرسول في العقبة برهط من المزوج — الفرق بين عقبة القبايل العربية ويطون يثرب — آثار تحاليم اليهودية فيهم — الديانة اليهودية من الاسباب القوية لظهور الاسلام — اعتقاد اليهود بظهور مسيح — تأثير هذه العقيدة في ندوس قبائل يثرب — حاجة بطون يثرب الى محالقات سرية — قصة الميسرانس بن رافع وقدمه الى مكة قبل يوم بثلث — ييمة النساء بالعقبة — ييمة العقبة الكبرى — مطامع بني المزوج من هذه الليفة — الناية التي كان النبي يرى اليها — نتائج ييمة العقبة الكبرى في لتاريخ الاسلامي — موقف قريش واليهود ازاء الليفة الكبرى بالعقبة

يوجه العلماء أثناء مجتهمهم عن حياة العطاء من الجنس البشري عناية عظيمة الى الليفة التي نشأوا فيها والوسط الذي أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن الظروف الداخلية والخارجية التي وجدوا فيها لثوقهم بأن لها الفصل الاكبر في تكوين عقليتهم وتنمية عبريتهم حتى اذا ما استوفوا ابحاثهم الدقيقة

العبيقة بأخذون في استنتاج النتائج التي يطمئنون اليها ويزنح لها ضمائرهم غير أن هذه الوجهة في البحث لا يرتضيها كثيراً رجال الدين أثناء البحث في تاريخ الانبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لانهم يعتبرون للشؤون الدينية مقياساً آخر وينزلون رجال الوحي منزلة أخرى وينظرون اليهم بعين غير التي ينظرون بها الى ابطال التاريخ البشري على أن هذا الاختلاف بين مقياس محقق العلم والدين لا يوجد الا في تعريف النظرية دون الوجهة العملية في جوهر البحث لان رجال الدين لا يخالفون الرأي العلمي القائل بأن الوحي انما نزل على الانبياء في ظروف داخلية وخارجية دعت اليه الأحوال وحوادث نفسية توافرت في الانبياء دون غيرهم ممن عاشوا في بيئاتهم وعصورهم ولتقلبات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم في ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع في توضيح الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد أثناء نزول الآيات القرآنية الى عهد هجرته الى يثرب فالتنا نود أن نبث في مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهي هل اتصل رسول الاسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته الى المدينة أم لا ؟

لا شك أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون الى مكة لاشتغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون الى خيبر ليجلبوا منها حلل آل أبي الحقيق التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلل بها حين زفافهن وغير ذلك^(١)

كذلك كان كعب بن الاشرف قد جاء الى مكة ليرثى قتلى بدر كما جاءت وفود من يهود النضير الى مكة لتحرب الاحزاب ليوم الخندق^(٢) وذلك بعد الهجرة

(١) الروايدى ص ٢٧٧

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٦٨

وكان زباجل مكة يجلبون التبيد من اليهود ويحدثنا الواقدي أنه وجد في مكة هبدي من اليهود كان اسمه عبد الدار بن جبر دخل في ذمة الرسول بعد أن منع منه منورة يوسف فكان لما وقع شديد في نفسه ولما بلغ الخبر مشركي مكة أوسعوه ضرباً فأعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقداراً من المال فتزوج بأمرأة شريفة من بنات مكة (١)

وقد أفرغ المستشرق Lamens جهده في أن يبرهن على أن عدداً من اليهود سكن مدينة مكة قبيل ظهور الاسلام (٢) ولكن نظرياته لا يطمئن إليها الباحث ولو صح ما ادعاه هذا العالم لكلف لليهود حتى خاص بهم في مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة الى وجود شيء من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا في مدينة مكة كما سكن بعضهم في مدينة الطائف (٣) وفي عدة مدن أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين .

يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حدوثه لاسيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة إذ كانت الاعمال التجارية في مدينته مكة مرتبطة ارتباطاً شديداً بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين في صحة خروج النبي الى الشام والتفائه بالراهب ببحيرا (٤) ويمتنعون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته (٥)

(١) الواقدي ص ٣٤٩

(٢) راجع الرسالة Les Juives a la Meque

(٣) فتح البلدان لابن خلدون ص ٦٣ طبع مصر

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ١٦٩

(٥) Die Juden zu Medina ص ٤١

وقد قسم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام يشتمل القسم الاول منه على الآيات التي أنزلت قبل الهجرة الى يثرب ويتضح أن الآيات في هذا القسم كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمى الى التأثير في النفوس العربية التي كانت تنظر باحترام عظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها « ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »^(١)

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن محمداً للعرب إماماً هو مثل موسى لبني إسرائيل وينذره ان هم لم يؤمنوا بما جاء به النبي محمد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا فكيف تنفون ان كفرتم يوماً بحمل الولدان شيئا »^(٢)

كما يقول « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين »^(٣)

ففس هذا التعريف يوجد في كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين^(٤) ويخاطب الوحي العرب بما يقتضيه بأن النبي ذكر في التوراة وأن بني إسرائيل يعلمونه « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الأولين أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني إسرائيل »^(٥)

ويشير التنزيل الى أن هناك توافقاً تاماً بين القرآن والتوراة « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن

(١) سورة الاعلى آية ١٩

(٢) سورة الرمل آية ١٥

(٣) سورة الاحقاف آية ٨

(٤) راجع ميخا فصل ٢ آية ٦ حزقيا فصل ٣١ آية ٢ (٥) ٢٣٥٥

(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥

واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (١)

من هذا يستنتج المستشرقون أن الأفكار في مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الاسرائيليين كي يثبت صحة رسالته ويؤيد دعوته التي يعلم قريش لها نظيراً في اليهودية ويعجب المستشرقون من أنه لم يأت في هذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الانجيل وأن أول إشارة في القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا في السنة العاشرة بعد بعث النبي محمد (٢)

وقد يستنتج العالم (Lesynsky) من هذا انه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز في الجاهلية وبين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنية في الدور الأول لا تخلو واحدة من الإشارة الى ما في التوراة والتلميح الى مواضعها وذكر شيء من تاريخ بني إسرائيل (٣)

مع أن من المؤكد الثابت أن أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا في مكة ما كنبن ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية وتعاليمها ومبادئها

كان التأثير بتعاليم اليهودية شديداً جداً الى حد أن قبلة الرسول في صلاته كانت الى جهة أورشليم كما هي عند اليهود فكان الرسول اذا صلى صلى بين الركنين البراني والاسود وجعل السكبة بينه وبين الشام (٤)

ورواية احتكام رسول الله وبني قريش الى يهود يثرب تدل على ما كان

(١) الاحقاف ٩ — ٢١

(٢) سورة مريم

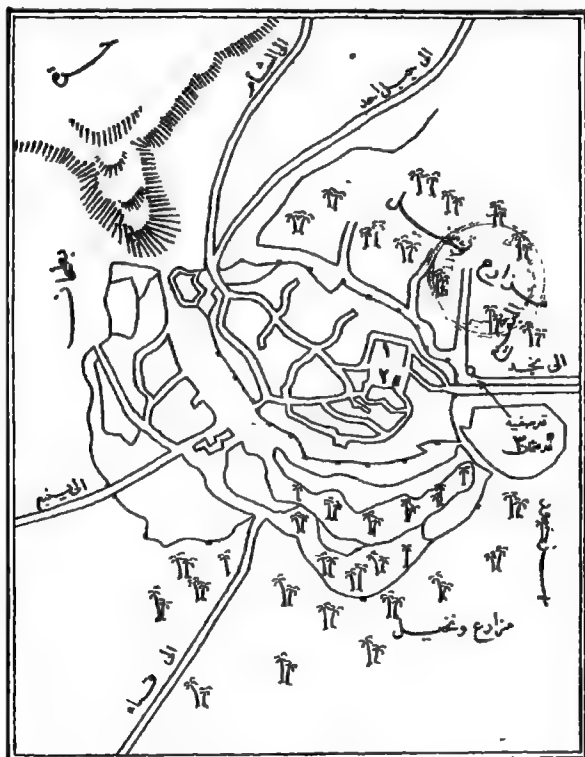
(٣) ص ٤١ Die Juden

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٢١

المدينة الميمنة (يَثْرِبُ)

مقاس الزم ١ : ١٢,٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) جبال



وضعت الخرائط الجغرافية في بلاد العرب في المباحية وصدر الاسلام . للذكور اسرائيل ولفنسون .

اليهود في نفوس أهل مكة من المكانة الكبيرة

ويحدثنا ابن هشام أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقلوا لها سلام من محمد وصفا لهم صفته وأخبرهم بقوله فاتهم أهل الكتاب الأول وعندما علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبرهم ببعض قوله وقلوا لها إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لها أحبار اليهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فارجل مُتَقَوِّلٌ فأروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كلف لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هي فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّلٌ فاصنعوا في الرجل ما بدا لكم فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة وأخبرا بني قريش ما سمعا من أحبار اليهود فجاءوا إلى رسول الله فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وقد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هي فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتهم عنه غداً ولم يستثن فأنصرفوا عنه فكث رسول الله فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك حياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقلوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يغيرنا شيء مما سألناه عنه وحتى حزن رسول الله ومكت عنه الوحى وسق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكف فيها معاتبته إياه على حرنه وعلى أنه لم يكمل الأمر لمشيئة الله وخبر ما سأله عنه من أمر الفتنة والرجل

الطوائف والروح^(١)

وينفى بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه^(٢) والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين

وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية وهى أن فى التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف^(٣) ومن هذه القصة أخذ أخبار اليهود الأسئلة التى وجهوها للرسول بواسطة وفد بنى قريش وتؤيد هذه القصة ما ذهبنا اليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود إذ لو وجد منهم فى مكة ما أوفد بنو قريش وفدهم الى المدينة ليسألوا أخبار اليهود عن شأن النبي واذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم

انتهى بذلك دور المناقشات بين الرسول وأهل مكة وبدأ النفور والاضطهاد ويحدثنا ابن هشام أن أهل مكة تأمروا على من أسلم وانبع الرسول فوثت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويمدبونهم بالضرب والجوع والعطش^(٤)

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه وأنه لا يقدر على أن يمنهم مما هم فيه من البلاء أثار عليهم بالتزويج الى بلاد الحبشة وكان لهم ملك لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق نخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول الى الحبشة مخافة الفتنة وقرارا الى الله يدينهم^(٥)

ولماذا لم يلتجئ هؤلاء المهاجرون الى إقليم من أقاليم العرب أو الى يهود

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧٤

(٢) Die Juden ٢٦ ص

(٣) راجع التلمود كتاب בבא בתרא ע"د

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨٨

(٥) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩٢

يثرب ؟ بعض المستشرقين من المنصبيين للنصرانية يقولون بأن النبي إنما أشار على المسلمين بالزواج الى الحبشة لأنه كان يفضل وجود المسلمين في بيئة مؤمنة من النصارى على وجودها بين المشركين ولكننا نميل الى الاعتقاد بأن عاملاً سياسياً هو الذى كان السبب فى نزوح المهاجرين الى الحبشة

كانت الأمة الحبشية تطعم منذ أجيال قديمة فى فتح الأقاليم العربية وكان ملوك الحبشة يراقبون أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ويتحينون الفرص لتنفيذ مطامعهم الاستعمارية ، من أجل ذلك بالغ التجاشى فى الاحتفاء باللاجئين من مكة أملاً فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شؤون مكة الداخلية

ولم يلجأ المهاجرون الى قوم من العرب فى الجزيرة مخافة من هيئة قريش وعمدائها وكانت بلاد العرب مرتبطة برجال قريش ارتباطاً تجارياً ودينياً وكان لبعضها محالفات وعقود سياسية مع رجال قريش

ولهذا السبب نفسه منع النبي الهجرة الى يثرب إذ كان بين بطون اليهود وآل قريش علاقات تجارية متينة لم تكن تسمح لليهود أو للأوس والخزرج بالاحتفاء بأعداء قريش وفوق ذلك فقد كانت الحرب دائرة بين بطون يثرب فى ذلك الحين (يوم بعث)

إذاً قد كانت بلاد الحبشة أقرب إقليم هادئ الى مكة وكانت هى البلاد التى تمكن الهجرة اليها مع امن المهاجرين على حياتهم وأموالهم وبعد هجرة المسلمين الى الحبشة أخذ الرسول يعرض نفسه على العرب فى المواسم ويدعوهم الى الله ويخبرهم انه بى مرسل

وقد رحل الى الطائف وعرض نفسه على بطونها فلم يقبلوا منه وخطوه وأنكروه فقال له أحدهم هو يمرطن ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله لا أكلمك أبداً لأن كنت

رسولاً من الله كما تقول لأنك أعظم خطيئاً من أن أورد عليك بالكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ثم أغروا به سفهائهم وعبيدهم برهونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجلاؤه الى حائط فلما اطمأن روعه قال اللهم اليك أشكو قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلفى الى عبد يتهمنى أم الى عدو ملكته أرى (١)

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التي كان يمانعها الرسول أثناء عرضه دعوته على بطون الطائف ثم تظهر مقدرته الفاتحة التي لا توجد الا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشرى حين لم يكن يبالي بمدوان البطون عليه ولا بقوارص السكك التي كان السفهاء يوجهونها اليه بل مضى في سبيله يدعو العرب الى الله بكل ما أمكنه من حيلة ووسيلة ولكن نجاحه كان بطيئاً جداً في ذلك الحين لان تعاليمه كانت تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيدة الراسخة في نفوس العرب « وعلى أن تسليخ هبل واللات والعزى من أعناقها » (٢) وكان ذلك فوق ما تهصسه عقولها وتحتمله نفوسها ثم رجع الرسول الى مكة

ويقى النبي يعانى الشدائد والصعاب في سبيل نشر دعوته وأعداؤه يزدادون في اسائهم اليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوحدت دعوته لديهم آذاناً مصغية وقلوباً واعية فبينما الرسول في العقة اذلقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم من أنتم قلوا نفر من الخزرج قل من والى اليهود قلوا نعم قل أفلا تجلسون أكلكم قلوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله لهم به في الاسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل تترك وأصحاب أوثان وكانوا

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

قد غزوم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شيء قل لهم اليهود ان نبيا يبعث الاز
قد اظل زمانه فتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله اولئك النفر
ودعهم الى الله قل بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله انه لنبي القى وعدكم به اليهود
فلا تسبقنكم اليه فاجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم
من الاسلام وقلوا له انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم
وعسى أن يجتمعهم الله بك فنستقدم عليهم فندعومهم الى أمرك ونعرض عليهم
القى أجبتك اليه من هذا الدين ثم انصرفوا عن الرسول راجعين الى بلادهم
وقد آمنوا وصدقوا^(١)

ويضح من هذا أنه كان هناك يون شاسع بين عقلية القبائل القاطنة
بالطائف وغيرها من سائر القبائل التي عرض عليها الرسول دعوته وبين عقلية هذا
النفر من رجال يثرب اذ كانت الأولى عقليتها جامدة جافة ليس فيها أى استعداد
لتصور الروحي وكانت الثانية عقليتها مرنة قابلة للتطور مستعدة للترقى فلم تك
تسمع دعوة الرسول حتى قبلتها واعتقدتها ووجدت دعوة الرسول في هذه النفوس
أرضا خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره
ولا شك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط
الشديد بيهود يثرب

وهكذا بعد تلك الشدائد والرايا التي نزلت بالنبي بسبب عرضه دينه على
العرب في تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم
وجد أمامة بطوناً يثربية دخلت في دينه بلا مقاومة وأخذ أفرادها ينظرون اليه
نظراً التعظيم والتقدیس لما ألقى عليهم الرسول
ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الاسباب التي ساعدت على
ظهور الاسلام وان يكن ذلك بطريقه غير مباشرة

وهناك ملاحظة أخذناها من هذه القصة — قصة النفر من الخرج — ولم نجد من تنبه اليها من المؤرخين وهو ان ما رشح في نفوس اليهود من اعتقاد بحىء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء كان له الأثر الكبير فى انتشار الاسلام كما كان سبباً فى ظهور النصرانية فى فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سبباً لظهور عدة أشخاص من اليهود فى القرون القديمة والوسطى بظهور الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخواتهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لانفسهم دعوة المسيح المنتظر

وقد ملأت هذه القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلى القديم والحديث وكثيراً ما كانت سبباً فى نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود فى أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة الى اليوم راسخة فى نفوس الطبقات المتدينة من اليهود واذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحضون اليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعائه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان لما يدعوم اليه . وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمى لهذه الفكرة الى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه

ولكنها لعبت دورها بين العوامل التى أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود أثناء أوقات السدائد والازمات أن المسيح المنتظر سيأتى ليتغلب على اعداء الشعب المختار فلما عرض النبي رسالته على أفراد من الخرج تنبهوا الى أقوال اليهود فاقبلوا يعتنقون الاسلام ويؤمنون بدعوة الرسول وهكذا أدت تلك المحادثة بين الرسول وبين نفر من الخرج الى هذه النتيجة العظيمة ذات الأثر البعيد فى التاريخ البشرى

لكن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبيرة وهى تلك المقاصد السياسية التى كانت ترمى اليها بطون العرب لارتباطها بروابط العروة الوثقى مع النبي

والذى ينعم النظر فى تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفة فى المدينة كانت تعمل سرا على إيجاد محالفات مع قبائل عربية قريية وبعيدة فى المحتمل اذن أن تكون الاوس والخزرج قد حالفت بطون بنى غسان لمحاربة اليهود فى عصر أبى جبيصة كذلك يحتمل أن تكون تلك البطون قد عرضت المحالفة على قريش ولكن لم يصل شىء عنها اليها أو أن قريشاً قد استنكرتها لمصلحتها التجارية

ونحن نعلم أن بطون الاوس قد أرسلت قبل يوم بعث وفد الى مكة وكانت فى ذلك الحين عاجزة عن محاربة بطون الخزرج وكان رائد وفد الاوس يرى الى تخريب قريش على الخزرج ولكن قريشاً رفضت الدخول فى أمور كان يشتم منها رائحة النعناء

ويحدثنا ابن هشام عن هذا الوفد « ان أبا الحيسران بن رافع قدم مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم اياس بن معاذ يلتبسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وقد جمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس اليهم فقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له فقالوا له وما ذلك قال أنا رسول الله بشئى الى العباد أن يعبدوا الله ولا يشرکوا به شيئاً وأنزل على الكتاب فقال اياس بن معاذ وهو غلام حدث هذا والله خير مما جئتم له فلعلمه أبو الحيسر اياس بن معاذ على وجهه وقال دعنا منك فلعمري لقد حننا لغير هذا فصمت اياس ثم انصرفوا الى المدينة وكانت وقعة بعث بين الاوس والخزرج ^(١)

وهذه القصة ذات شأن عظيم فى فهم تاريخ بطون يثرب واثى لأميل الى الاعتقاد بأنه لو لم تكن لها صلة بالرسول لاهملها ابن هشام كما أهمل مؤرخو العرب القداماء ذكر محالفات أخرى مع قريش جاءت الاوس أو الخزرج لتعرضها عليها

أما بعد يوم بعثت قد ظهر عند بطون الخزرج المغلوبة على أمرها أن تقتنى أثر الأوس في أيام عجزها وكانت بطون الخزرج تنسب إلى الشأز من الأوس واليهود معاً لأنهم قد انحنوا فيهم إغنا وبالقوا في قتلهم فلما ذهب نفر من الخزرج إلى مكة لتأدية فروض الحج وكان قلبهم يفيض أسى وحزناً فلم يكدر يعرض الرسول دعوتهم عليهم حتى قبلوا منه وآمنوا بدعوته وابعوه لأنهم أرادوا أن يكون لهم منه مسيح يتقدم بما يمانون من يؤس وشقاء

وفي العام المقبل في موسم الحج حدثت بيعة العقبة المشهورة ببيعة النساء ^(١) وفي الموسم الثالث تمت البيعة الكبرى بالعقبة وقد اشترك فيها اثنا عشر تقياً من قبلاء الأس والخزرج وأخبارها مطولة في سيرة ابن هشام ^(٢)

وأما الغرض الذي كان يرمى إليه الرسول فكان فرضاً دينياً قبل كل شيء ثم إلى إيجاد قوة لحاربة قريش التي نسي إليه وإلى كل مؤمن بينا كانت العاية التي يرمى إليها هو الخزرج سياسية قبل كل شيء وهي إيجاد قوة لحاربة عدوم الذي بالغ في قتلهم وإذلالهم وهو بطون اليهود في يثرب

وقد قال الزعيم الخزرجي أبو الهيثم للرسول « ان بيننا وبين الرجال حبلاً وأنا قاطعها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن نرجع إلى قوتك وتدعنا فتبسم الرسول وقال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسلم من سالمكم ^(٣)

واذا سلمنا بصحة هذا الحديث فإنا نقرر أن الغاية التي كان بو الخزرج يرمون إليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جلية اذ هي مقاتلة يهود يثرب وهدم كياناتهم

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٨ — ٤٢

اما النبي فقد وعدهم ما وعده لسكسب ثقتهم التامة واما الغرض الذي كان يسمو اليه في الواقع فقد كان غير غرضهم تماماً اذ لم يكن بعد قد نشأ بينه وبين اليهود شيء من العداء ولم يكن يضر لهم أقل شر بل كان يرمى الى توحيد بطون يثرب جميعاً وجعلهم أمة واحدة لينتمكن من أن يحارب بهم أعداءه . . . ١ .

وكذلك يحتمل أنه وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم الرسول في البيعة الأولى بأن يقاتل أعداءهم من الاوس واليهود جميعاً ولكن في بيعة النساء قد اشترك بعض النقباء من الاوس ومع أنه لم يشترك أحد من زعماء اليهود في البيعة الكبرى فان النبي كان يعتقد رغم هذا ان سيدخل اليهود في ذمته حين يظهر في يثرب

والذي مهد السبيل وهياً القلوب للبيعة الكبرى هو محمد بن عمرو الذي ذهب مع النقباء من بطون يثرب بعد بيعة النساء وقرأ مع الانصار القرآن وألف بين قلوبهم وكان الاوس والخزرج يكره بعضهم بعضاً فكره بعضهم أن يؤهه البعض الآخر (١)

ولكن مصعب بن عمير استطاع أن يحالف بين النقباء الاثني عشر في يثرب وأن يأتي بهم متآلفين متصانين في غاية واحدة الى البيعة الكبرى وهما يعترضنا سؤال وهو لماذا لم يشترك من اليهود في هذه البيعة أحد ألم يكن مصعب بن عمير يسعى لادخالهم في الحلف أو أن اليهود لم يلبوا دعوته أو أنه خشي من دخول اليهود في هذه البيعة أن تصعب عزيمة رعااء الخزرج . . . ٢ . هذه أسئلة يجب ألا تغيب عن بالنا في أثناء بحثنا في تاريخ البيعة الكبرى بالعقبة

وهنا يمن لنا سؤال وهو كيف كان موقف قريش واليهود اراء اتجاه الرمول

الى بطون يثرب العربية التي اتهمت بالبيعة الكبرى بالعقبة ؟

لقد رجحنا الى ما كتبه العرب عن حركت قريش أثناء البيعات في مواسم الحج من ناحية بطون الاوس والخزرج فوجدناهم اقتصروا على بسط أعمال زعماء قريش بعد البيعة الكبرى وفي أثناء العمل لها فعل يمكننا أن نصدق أن قريشاً وقفت موقف الحياد في تلك السنوات الثلاث التي استمرت فيها المحادثات والمفاوضات بين انصار الرسول وبين بطون يثرب ونحن نعلم أن زعماء قريش قد أعلنوا عداوتهم للديانة الجديدة منذ نشأت ولم يألوا جهداً في قتلها وهي في المهد ولم يتركوا وسيلة لا يقاد الفتنة ضد المسلمين الا لجأوا اليها حتى لقد أرسلوا الوفود الى الحبشة يستعينون بها على اخراج المؤمنين من ديارهم ، أيمكن أن نسلّم بأن قريشاً أغضت أو تناضت عن تلك الحوادث الهامة التي كانت تجري في مكة في حين كان القوم يؤدون شعائرهم الدينية وكانت تلك الحركات العدائية مصوبة الى العقائد القديمة من ناحية عنصر عربي له قوة ونفوذ في شمال الحجاز أجمعه ؟

ازاء هذا لا يمكننا أن نسلّم بذلك الحياد المظنون بل نرجح أن قريشاً بذلت كل ما كان في وسعها من القوة والنفوذ لتحبط مشروعات الرسول ولترجع زعماء الاوس والخزرج الى موقفهم الاول ولكنها حابت في هذا المسمى لأن بطون يثرب لم تستمع لهم اذ كانت تأثرت بنفوذ النبي ورأت أن مصالحها السياسية والاقتصادية تقضى بالانضمام اليه

وانه ليسينا أكثر من هذا أن نعرف موقف يهود يثرب اراء هذه البيعة الكبرى بالعقبة فإن المراجع العربية لم تنل الى حركاتهم ونياتهم ازاء هذه البيعة الكبرى كأن الدعوة الاسلامية لم تصل اليهم وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون اليثربية العربية

ونحن نرجح أن اليهود لم يفضلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم

السياسية والتجارية والاجتماعية خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلاميه صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول ونحن نعلم ما كانت بينهم وبين اليهود من الحقد بما جعل زعماء بنى النضير وقرظة يرافيون حركاتهم جميعا ثم نعلم أن الاسلام لم ينشر خفية في يثرب وكيف وقد كان مصعب بن عمير يدعو الناس الى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون وكان ينتقل من بطن الى بطن ومن حى الى حى مدة طويلة ثم إننا نعلم أن عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج فمن البعيد إذن أن يجعل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار

فمن لا نشك في أن اليهود لم يكونوا متحدين في ميولهم السياسية والاجتماعية قد كانوا في شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة الا في أيام البؤس والشدة كما اتحد بنو النضير وبنو قرظة في يوم بعث ضد عدوهم من بنى الخزرج وفي يوم بعث كان بنو قينقاع يحاربون الى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء جلدتهم وقد بالغ اليهود في قتلهم وعداوة بنى قينقاع لبقية اليهود قديمة فيما يرى بعض المستشرقين اذا ذكرهم اليهود على الخروج من مزارعهم والاكتفاء بحبيهم الذي كان يحميه بنو الخزرج

وأما عنا عنصر ثالث من اليهود هو البطون اليهودية الصغيرة وكان من بطون العرب في يثرب أسرتهم ولم تخرج من ديارها بل بقيت محبطة بمنزلها بين قومها ونحن لا نجد لهذه البطون اليهودية ذكرا في النضال العنيف ضد الاسلام

فهل نظن انهم لم يتسلخوا قط في شؤون الحرب أو انهم قاتلوا في صفوف أبناء دينهم ولم يذكرهم المؤرخون لقتلهم وقد يصح أن نفترض انهم مع نهودهم آثروا النزعة القومية على الماطفة الدينية فلم يشتركوا في حرب اليهود للمسلمين ؟

كانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك افترض انه اذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط أعمال المسلمين في المدينة وكذلك كان فان الذي يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف وزعيم بني النضير وبين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصلت أرض يثرب والهداء الذي استنفل أمره بين الجهتين يؤيد ما نقول

ولكن اذا افترضنا اتفاق بعض زعماء اليهود مع قريش لتحرش بالاسلام فاننا نعلم من جهة أخرى أن مخبريق اليهودي أحد زعماء وأغنياء بني النضير كان من أوفى الناس لرسول وأكثهم ميلا اليه منذ هجرته وكذلك أظهر عبد الله بن سلام ولاء للهي قبل أن تنشأ الأزمة بين النبي وبين يهود المدينة كل ذلك يؤيد ما نميل اليه من ان النزعات السياسية عند زعماء البطون كانت مختلفة كل الاختلاف وهذا كله فرض قد يساعدنا في البحث عن العلاقات بين المسلمين وبين قريش واليهود

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير أن أهل يثرب لما بايعوا النبي البيعة الكبرى علمت قريش في تلك الليلة بتلك البيعة مع أنها كانت سرية لم يعلم بها وثنيو أهل يثرب فمن الذي أفضى الى قريش بذلك الأمر ؟

لا جائز أن يكون أحد المبايعين أحمرهم بما كان والوثنيون لا علم لهم بشئ ، والذي نعرضه أحد أمرين :

الأول أن تكون قريش تنبئت الى الأمر وراقت محمداً من حيث لا يدري حتى اذا اجتمع بأنصاره بلغهم عينهم بما كان ففطنوا للأمر

الثاني أن أحد اليهود من تجار الموسم رأى جيرانه في الدار على حال غير

«متادة ففطن للأمر وأمر الى قريش بما رأى .
وقد ذكر المؤرخون أن قريشاً عاتبت أهل يثرب على ما كان من أمر بيعة
الرسول فسكت من كان منهم مؤمناً ودخل في بيعة النبي وتكلم الوثنيون فأنكروا
أن يكون حصل منهم شيء، تكرر قريش وحلفوا لهم على ذلك فرجع القرشيون
حين سمعوا ذلك . . . اهـ

وهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة قلها من الحوادث ذات النتائج
الخطيرة في التاريخ الاسلامي

وانى أعتقد انه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك
السنة لأن قيمتها لم تكن أقل شأنًا من قيمة هجرة الرسول الى يثرب . . . ومع
ذلك فلم يفتحهم شيء كثير فان الهجرة حصلت في السنة التالية لها عن قرب

الباب السادس

هجرة الرسول الى يثرب

واملاؤه بنى قينقاع والنضير عنهما

آمال اليهود التي كانوا ينتظرون تحقيقها بعد قدوم النبي الى يثرب — مهادنة الرسول مع يهود يثرب — نص الصحيفة — آراء المستشرقين فيها — قيمة هذه الصحيفة — نظام الحكم في منطقة يثرب قبل الهجرة — رغبة الرسول في التآليف بين قلوب المسلمين واليهود — كيف نشأ سوء التفاهم بين الرسول واليهود — بعض أسباب حوالة لسوء التفاهم أهلها المؤرخون — المجادلة الدينية ضد مبشر الخصومة — اشتداد الازمة السياسية بين الرسول واليهود — فشل الطائفة المعتدلة من اليهود في سعيها لارحام المياه الى مجاريها — دور المنافقين في هذا النزاع — يوم بدر — لماذا لم يشترك اليهود في القتال يوم بدر ؟ — دعوة الرسول بنى قينقاع الى الاسلام — الاسباب التي أدت الى نشوء العداوة بين المسلمين وبين قينقاع قبل غيرهم من اليهود — رد بنى قينقاع على دعوة الرسول — جلاؤهم عن المدينة — آيات قرآنية نزلت في حلاء بنى قينقاع عن المدينة — يوم أحد — امتناع بنى النضير عن الاشتراك في هذه الموقعة — تخيير اليهودى صديق الرسول — قتل كعب بن الاشرف — قطة خلاف بين اس هشام واليقوي — أمر الرسول باجلاء بنى النضير عن المدينة — أصرار بنى النضير على المقاومة بتشجيع زعيم المنافقين — زول بنى النضير على حكم الرسول — مفاتم بنى النضير — شهر العرب في يوم بنى النضير .

لا شك أن اليهود كانوا يرصدون الاحوال التي طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالصفة ويراقبون تطور الحوادث باهتمام شديد ولم يكن يدور في خلدكم ان سيحدث ما يوجه الحوادث في تيار مصاد لمصالحهم ومضاد لكياناتهم ولو أنهم تبينوا في مظاهر الخرج ما يدل على شيء من ذلك لأعلنوا الحرب جهراً منضمين الى حلفائهم من الطون البثرية أو منضمين مع قريش

ويلوح لى أن اليهود كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قدوم النبی الى یثرب وكانوا یعتقدون أنه فی مصلحتهم قد نادى فیهم أول رجل منهم رأى النبی فی یثرب بأعلى صوته « هذا جدكم قد جاء » (١)

كان یهود یثرب یتشوقون لرؤية الرجل الذى ینشر دعوة دینیة تتفق فی جوهرها مع عقائدهم وكانوا یعتقدون أن ظهور رجل لیس من بنی اسرائیل یدعو الى توحید الآله والى تعالیم النوراة والى تمجید ابراهیم وهوسى إنما هو ظاهرة غریبة فی التاريخ البشرى

ولا شك انهم معموا من مصعب بن عمیر بعض الآیات القرآنیة وانه كان لهذه الآیات وقع حسن فی نفوسهم جعلهم يؤمنون فی هجرة النبی الى یثرب آمالاً کباراً

ویظهر أنهم كانوا یعتقدون أو على الأقل یرجون أن یتسكنوا من التأثيریه حتى یدخل فی دینهم حیث یتعاونون على محو عبادة الاصنام وقد یحتمل انهم كانوا یرجون أيضاً أن یتسكن الرسول من التألیف بین البطون البثریه وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدینة التى كانت فی حاجة شدیة الى الهدوء والسکینه وكانوا یعتقدون انه لو تم ذلك لأصبحت یثرب أعظم مركز للتجارة فی الجزيرة ولتسكن أهلها من أن یصرفوا تجارة مكة وغيرها

من المحتمل أن آمالا من هذا النوع كانت تحیش فی صدورهم أثناء الفترة التى كانت بین البیعة الکبرى و بین الهجرة

کذلك كان الرسول یرغب فی التقرب الى اليهود نظراً لمکانتهم الرفیعة من الوجهة الأدبیة والمالیة والسیاسیة فی البلاد المحازیة وكان یعتقد أن اليهود یدخلون فی ذمته وملته بلا مقاومة بل یرحبون بدعوته التى تشبه فی جوهرها تعالیم

الآباء الأقدمين من بني إسرائيل حيث يكون منهم ومن البطون العربية أما واحدة تبذل النفس والنفس في سبيل تنفيذ مشروعاته

وقد عقد الرسول بعد قدومه الى يثرب معاهدة ودية مع اليهود وقد جاء ابن هشام بنص هذه المعاهدة ويقول :

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدكم وأقرم على دينهم وأموالهم عليهم وشرط واشترط لهم بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عاقبهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحرث على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو حشم على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيتها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يسطوه بالمعروف في فداء أو عقل

ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بني أو

اجنئ وسبعة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس

وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلّم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غارية غرت منا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين بنى بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك إلا لقريش ولا فحشاً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن يده فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الاقيام عليه وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤذيه وأنه من نصر أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم

وأن اليهود ينتقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . واليهيم وأنفسهم إلا من ظلم وأنهم فإنه لا يوتغ (أى لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته وأن لليهود بنى الدجار مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى الحارث مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى جشم مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى

(١) وفي القرآن آية صريحة زلت على الرسول في هذا الشطر من الرمن تتر هذا للنبي من الماهدة : لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم « (سورة البقرة آية ٢٥٦)

الأوس مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأنتم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البردون الأثم وأن . . . والى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينحجر على نار جرح وأنه من فلك فينفسه فلك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبردون الأثم وأنه لم يأتهم أمرؤ بحليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرة إلا بأذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد فأن رده إلى الله هو وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من تصرها وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فاتهم يصلحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة . . . اهـ

وقبل أن نعرض لهذه المعاهدة نقول : ان الصحائف التي عقدها الرسول مع المشركين واليهود تنقسم إلى قسمين : القسم الأول يشتمل على عقود وعهود وقعت حقا وشهد بوقوعها القرآن الكريم وأثبتها المؤرخون القدماء أما القسم الثاني فيشتمل على عهود غير صحيحة نجلت بعد وفاة الرسول لأغراض شتى اذ كان الخلفاء يقررون كل ما وعد به النبي ولو لم يكن مكتوبا

ولا يشك المؤرخون في أن النبي عقد مع اليهود عقوداً مختلفة بعد حضوره

الى المدينة اذ كان يخاف على حياته وحياة انصاره ويود عقد المحالفات مع اليهود الذين لعبوا دوراً هاماً في يثرب . وفي القرآن تأنيب لليهود على تقص العهود وهو أصح دليل على أنه عقدت معهم معاهدات ^(١)

وقد ذكر ابن هشام عقوداً مختلفة عقدت بين اليهود وبين أرسول عدا هذه المعاهدة ^(٢) وقال أبو عبيد في كتاب الأموال : انما كتب رسول الله هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية واذا كان الاسلام ضعيفاً وكان لليهود اذ ذاك نصيب من الفهم اذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم في هذا الكتاب النقة معهم في الحروب . . . ^(٣)

وكانت هناك صحيفة خاصة بينه وبين بنى قريظة وبين الرسول وبين يهود خيبر وتبعا ووادى القرى وذكر ابن سعد عقوداً عقدها الرسول مع يهود بنى غديرة ^(٤) وذكر صاحب فتوح البلدان صحيفة عقدت بين الرسول وبين أسرة شريفة من اليهود ^(٥)

وكل هذا يؤيد وجود معاهدات بين النبي وبين اليهود ولكن من العسير أن نأنس الى جميعها كما يفعل المستشرقون فان ابن اسحق لم يحدثنا عن معاهدات مخطوطة وصلت اليه وانما يكتفى بالرواية عن السابقين وهذا لا يقدر في قيمة هذه الصحيفة التاريخية التي نرجو أن تزيل بعض الغموض من حياة القبائل العربية واليهودية بالمدينة

(١) وكان بينهم وبين رسول الله عهد الى مدة ففصموا ذلك العهد (جزء ٣ ص ١٥٨ على الحامش من كتاب جامع البيان للطبري والرواية عن ابن عباس) ثم في الجزء الاول من جامع البيان ص ١٤٢ — ١٤٣ روايت كثيرة في تفسير الآية الذين يقتضون عهد الله

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤ وجزء ٣ ص ١٩٧

(٣) الروض اللاف جزء ٢ ص ١٧ طبع مصر

(٤) ابن سعد . سنة رسول الله الرسل بكتبه ص ١٨ طبع Wellhausen برلين

(٥) فتوح البلدان ص ٦٠

أما الغرض الذي كان يرمى إليه الرسول من وراء هذه الصحيفة وما إليها من
المهود التي عقدتها مع بطون يثرب فهو هدم النظام القديم وإيجاد نظام جديد
يمكن به أن تتوحد العناصر اليتيمية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينة
واحدة فقد كانت يثرب منقسمة إلى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة لبطن من
البطون وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين يشتمل القسم الأول منها على الأراضي
الزراعية بمنازلها وسكانها وكان من الزراع والفلاحين فئة تضم هيئة البطن من
أصحاب الأرض الزراعية تعمل في الفلاحة ولها ما للبطون التي تملك الآطام من
الامتيازات والحقوق وفئة كانت تجب العمال المستأجرين من البطون اليتيمية
وهم أحرار ولم يحقوا الأحرار ثم وجدت طبقة العبيد التي لم يسكن لها من
الحقوق الا القليل

أما القسم الثاني من الدائرة فكان يملك الآطام وكان البطن يملك أطما أو
آطاما وهذه الآطام كانت ملكا خاصا بالأسرة العريقة وكان رئيس الأسرة
صاحب السلطان في الآطام كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون
وكانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب فكان يفرع إليها أفراد البطن عند
هجوم العدو ويأوى إليها النساء والأطفال والمعزة حين ينهب الرجال لمقاتلة
الاعداء وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الفلال والثمار ذلك أنها
كانت معرضة في أما كتبها المكشوفة للنهب والسلب وكان الآطام مرجعا
لكثر الأموال والسلاح وكان للقبائل المثقلة بالبصائع أن تنزل بالقرب منه كما كانت
تقام على أبوابه الأسواق

وكانت الآطام تشتمل — كما نظن — على المعابد وبيوت المدراس^(١) إذ
كانت قلعة الآلات كثيرة الأدوات مملوءة بالأسفار فكان يجتمع فيها الزعماء

للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب للقدسة حين يهيمون بإبرام العقود والاتفاقات

ثم وجدت في يثرب بطون لم تكن تملك الآطام وكانت تقيم في الاحياء حيث تحصى البطون الكبيرة موالها من إغارات البطون الأخرى وكانت الاحياء متضامة يلاصق بعضها بعضاً وكانت مع هذا مختلفة في نظمها للداخلية حيث يهتم كل حى بشؤونه

واذ كانت الآطام في نظامها قد وجدت في شمال الحجارا أكثر مما وجدت في أى بقعة أخرى من بلاد العرب فأننا نرجح أنها كانت متأثرة بالنظم الاجتماعية اليهودية التي كان يجرى عليها اليهود في وطنهم الاصلى فلسطين

وهنا يعرض هذا السؤال : مم اشتقت كلمة اطم ؟ فان معناها بالعربية غيره بالعبرية. يقول صاحب الروض الانف الاطم اسم مأخوذ من اطم اذا ارتفع وعلا يقال اطم على فلان اذا غضب واتنفخ والاطامات نيران معروفة في الجبال لا تخمد فيها تأخذ بنيران السماء فهي أبداً باقية لانها في «مادن الكبرى» (١)

أما العبرية فلعل اطم (אטם) «مان شقى يقال اطم عينه أغضها وأطم اذنيه سدّها والاطم في الجدران والحيطان هي النوافذ المخلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل ويستعمل الاطم في السور أى الحائط الضخم وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم اطم لأنه كان في امكانهم أن يفلقوا أبوابه وان كانت له نوافذ تغلق من الخارج وتفتح من الداخل

كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من الساف الى الحلف في الأسرة الواحدة التي تفرد بعمل من الأعمال وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم في يثرب وكان كل بطن يجتهد في أن ينفرد بالقود

وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم اليه طائفة من البطون الصغيرة تعد من مواليه وكان يشرف على مزارعها ومتاجرها وحقوقها واذا وقعت افارة عندها واقمة على رعاياه فطالب بالثار أو دفع الدية وكان أفراد البطن الصغير يلجأون الى أطام البطن الكبير اذا هاجمهم العدو وكان البطن الصغير يتابعه البطن الكبير مضطراً الى الاشتراك في الحروب التي توجه الى البطن الكبير والا رمى بالتمرد والمصيان ومع هذا حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تعد من حريتها وكان من نتيجة ذلك أن تجهزت البطون الكبيرة كل ما يهيح البطون الصغيرة

وكان هناك شبه توازن في نظام الحكم بين البطون الكبيرة فكانت تنور بقية البطون اذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ

هذا كل ما يمكن أن نفرضه واقماً عن نظام الحكم في يثرب ولا نعلم بالضبط كيف وصلت الى هذا النظام فليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف انتقلت البطون اليمانية من البداوة الى النظام المعقد الذي وصلت اليه قبيل ظهور الاسلام ولكن من المرجح أن يكون هذا النظام نتيجة لحروب وحوادث وقعت في قرون مختلفة قبل هجرة الرسول الى يثرب فلو انظم الاجتماعية لا توجد الا متأثرة بالحوادث راقية كانت تلك النظم أو منحلة

كان تضافر تلك البطون وتوافقها ناضاً لما كل الدفع في حرة الأخطار الخارجية التي كانت تهددها من سائر البلاد العربية وكان يمكن أن يصل هذا التوافق الى شيء من النظام الجمهوري الراقى ولو استطاعت يثرب أن تتحد اتحاداً يقوم على أساس التعاون والتوازن الصحيح لاستطاعت هذه القوة أن تبسط سلطانها على قبائل الجزيرة العربية

وما يذكروا في المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها

عبد الله بن أبي وأنها نظمت له انظرزتوجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها أن رهن عبد الله كان قد غلب على أمره يوم يثرب فليس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين إلى تملك زعيم من الخزرج وكانوا لهم من أعداء الأعداء.

على أن عبد الله بن أبي لم يكن صالحاً لقبض على ناصية الحكم في يثرب وإنما كان ضعيفاً دسماً متردداً لا يستقر على حال . . .

يضاف إلى ذلك أن إيجاد عرش في يثرب كان يقضى على استقلال البعاطر وما كان يمكن أن تصل إلى شيء من هذا بغير الحرب وهذه الهدوء كل هذا كان الرسول يعلمه وكان يعلم أنه يتنازع مع أغراضه المنظمة فلم يربداً من هدم نظام يثرب فقد كانت في حاجة شديدة إلى قوم مؤلفين لم تفرق بينهم الأهواء المتعاضدة يستطيع أن يسومهم بإرادته ونفوذه وهؤلاء كانت سياسة الأنظمة والاحياء رزقهم شرمق فكان من الحزم أن يهزم نظام الطوائف وأن يؤسس نظاماً جديداً وكان سبيله إلى غايته أن يعقد الميثاق بين البعاطر واليهودية وأن ينشر تعاليم القرآن من ناحية أخرى

كل ذلك جرى عليه الرسول قبل أن ياجأ إلى السيف لتهور أعدائه في السياسة والدين كما سيحى بيانه . . .

وإلى قصة التي نقلها عن ابن اسحاق في السيرة مفرى تعرف به شيئاً في سياسة الرسول بعد هجرته إلى يثرب : قال ابن اسحاق ومرشاس ابن قيس وكان شيخاً قد عسى ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم . . . فغاضه ما رأى من ألغتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال قد اجتمع ملائكة بني قيلة بهذه البلاد لا والله لا لنا

بمعهم إذا اجتمع ملائم بها من قرار فأمر فني شايًا من يهود كان معه فقال إصمد اليهم فأجلس معهم ثم اذكر يوم بسات وما كان قبله وأنشدم بعض ما كانوا يتناولون فيه من الأشعار وكان يوم بسات يومًا اقتتل في الأوس والخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سلك الأشملي وأبو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمر بن النعمان البياضى قتلًا جميعًا . . . فعزل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيفلى أحد بنى حارثة بن الحرث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتناولوا ثم قتل أحدهما لصاحبه ان تتم رددناها الآن جنعة وغضب الفريقان جميعًا وقتلوا قد فعلنا . وعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة السلاح السلاح فخرجوا إليها فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين الله الله أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أهر الجاهلية واستغفركم به من الكفر وألف به بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزع من الشيطان وكيد من عدوم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين طاعينين

وقد استغرق ماجاء في هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حسابًا غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم

ولكن الذى يتأمل في هذه الصحيفة يحسب اذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبني قينقاع ذكرًا فيها فكيف أمكن أن يعقد النبي - هودًا مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها

وللستشرقين في هذه الظاهرة رأيان : الأول : ان هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية وتدخلها فيها ومعدودة من واليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص

والثاني : ان هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة أيضاً من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ولكن مؤرخى العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساء لهم أن يدكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بسفك الدماء ^(١)

ويؤيد رأى الأخير أن المؤرخين لم يذكروا البطون الصغيرة التى تعاقدت مع الرسول ضمن من اعتدوا على الأنصار وحاربهم ومن المحتمل أن ما جاء فى الصحيفة عن يهود الأوس كان شاملاً لبنى النضير أيضاً

وعلى كل حال فليس من شك فى أن النبى قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره الى يثرب فعلى ذلك أميل الى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لانتاجد الرسول يغضب من بنى النضير لأنهم لم يشتركوا فى يوم أحد فى حين انه لم يطلب من بنى قريظة أن يشتركوا معه فى حرب المشركين

ومن جهة أخرى فان عقد معاهدات كثيرة مع بطون كثيرة قد يكون فى مصلحة الرسول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لان المعاهدات الكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسية والحربية بينما يكون الاعتداء على بطن من البطون المجتمة فى معاهدة واحدة كأنه اعتداء على جميعها

وقد نرى الرسول يحارب بطناً من البطون دون أن تتحرك البطون الأخرى وكأن الحرب التى تقع بين المسلمين والبعان من بطون اليهود لم تمس صحيفتها ولم تنقض شروطها . ولنا عودة لهذا الموضوع فيما بعد

وقد عقد الرسول معاهدة كانت خاصة بين قريظة (١)

أما روح هذه المعاهدات فلاثم كل الملازمة للحالة التي كان عليها المسلمون واليهود في الفترة لأولى بعد مجيء النبي إلى يثرب . . .

لقد قلنا ان الرسول قد أراد أن يؤلف بين القلوب فأحل للمسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتنهمن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان » (٢)

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها (٣) ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكاف اليهود أن يعترفوا برسائله لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولو كان اليهود قد نظروا بعين ملوها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولأ يذروه وساعدوه بأموالهم وأفقدتهم حتى يحطم الأصنام ويقضى على العقائد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقليّة اليهودية لا تأين أمام شيء يزحزحها عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير نبي اسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد ان ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد اقضى عهد بعث الرسل وظهور الانبياء سواء كانوا من بني اسرائيل أو من غيرهم (٤) كما يعتقد المسلمون انه لن يبعث نبي بعد الرسول محمد

هذه العقيدة يجب أن لا تنرب عن الاذهان لأنها أساس كل ما حدث بين

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

(٣) البخاري جزء ١ ص ٤٩٨

(٤) راجع التلويذ كتاب سنن دودون ص ١٢٢٢

اليهود وبين الرسول من خلاف وتزاع ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف أو لكان في الامكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك

ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود مع أنه مما لا شك فيه أنه اذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقاً للبحث في هذا الموضوع

وبدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين ^(١) فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله ويصلون فيها الى حد التعتس فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ^(٢)

وكانوا يطالبون النبي بأن يأتي اليهم بالمعجزات « الذين قالوا ان الله عهدنا لينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن . . . تأكله النار . . . » ^(٣)

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء . . . » ^(٤)

ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود وينصفهم « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعطون . . . » ^(٥) ولما جاءهم كتاب الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (سورة البقرة آية ٨٩)

ثم ظهرت المداوة فأخذ النبي يطلع في يهود يثرب وأخذ اليهود يرمون الانصار بقوارص الكلم فزلت الآيات الكثيرة مشيرة الى فتور الاحوال بين الرسول واليهود « أولئك الذين حبطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٢٥ — ١٨٢

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٦

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٣

(٤) سورة النساء آية ١٥٣

(٥) سورة البقرة آية ١٠١

ناصرين (١) »

« الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكفرون الحق وهم يملكون (٢) »

وهكذا اشتد التنفور حتى كانت الخصامات تقع بين اليهود والانصار في الشوارع يترامون فيها بالألفاظ القبيحة ويتنصّلون كما نعلم من حديث للبخاري انه استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي الى النبي بما كلف من أمره وأمر المسلم فدعا النبي المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبي لا تخيروني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأصمق معهم فأكون أول من يفيق فاذا موسى باطن جانب العرش فلا أدرى كان فيمن صعق قبلي أو كان ممن استنق الله... (٣)

ونزل كثير من الآيات في ذلك الحين متضمنة العلمن المر في اليهود منها « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا (٤) » ومنها : بشما استتروا به أنفسهم بما أنزل الله نبياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ولكافرين عذاب مهين (سورة البقرة آية ٩٠) « ومنها مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بشم مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

وأخذ القرآن يذكر بما ارتكبه أجدادهم من الجرائم كهسيانهم لموسى وقتلهم أنبياء بني إسرائيل وسجودهم للعجل... (٥)

(١) سورة البقرة آية ١٤٦

(٢) سورة آل عمران آية ٢٢

(٣) البخاري جزء ٢ ص ٨٩ وم ٣٥٤ و ٣٥٩

(٤) سورة المائدة آية ٨٥

(٥) راجع سورة البقرة آية ٩٠ — ٩١

ولكن كل هذا لم يضعف من عزيمته اليهود فاستمروا على مناقشة الرسول
وغخاصة الانصار الى أن حذر التنزيل المسلمين من المجادلة الدينية
« قد نزل عليكم ان اذا صمتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا
مهم حتى يخوضوا في حديث غيره (١) »

فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبي بأنه لم
يوفق الى النجاح في تحقيق الفكرة التي كان يرمى اليها من التآليف بين قلوب
اليهود والعرب وإيجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهراً من قدوم النبي الى يثرب حتى تلبد الجو
بالنيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالخدر والنفور من الفريق الآخر وكذلك
طرأت تفسيرات دينية وظهر ما يسمى في عرف القرآن الكريم بالنسخ « ما ننسخ
من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (٢) »
وتحولت قبلة الصلاة الى الكعبة بعد أن كانت متجهة نحو بيت المقدس
« قد نرى قلبك وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد
الحرام . . . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون
أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . . . » (٣) ويحدثنا ابن هشام عن
هذا الموضوع فيقول :

ولما صرفت القبلة من الشام الى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة
عشر شهراً (قبيل يوم بدر) من مقسم رسول الله الى المدينة أتى رفاعه بن قيس
وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف من اليهود الى النبي فقالوا يا محمد ما ولاك عن
قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه ارجع الى قبلتك

(١) سورة النساء آية ١٤٠

(٢) سورة البقرة ١٠٦

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ حديث البخاري جزء ١ ص ١٨

التي كنت عليها تبصرك ونصدقك . . . (٤)

وكان هناك طائفة معتدلة من اليهود أرادت أن تصلح بين الفريقين المتخاصمين وتزيل ما بينهما من أسباب النزاع ولكنها أخفقت في مسعاها لأن السبل كان قد بلغ الزبى فأوجست هذه الطائفة خيفة من استمرار العداء وتوقعت شراً مستطيراً مما يضره كل من الفريقين للآخر من الحقد والبغضاء وكان مخبريق اليهودى رفيق الرسول من أنصار هذه الطائفة وقد حار في كيفية معالجة المشكلة التي صارت أعقد من ذنب الضب

وكان هناك عنصر آخر لمب دوراً خطيراً في الحوادث الثورية وهو العنصر الذى يضم أعداء اليهود السياسيين من بنى الخرج فقد كانوا أشد الأقوام خصومة لليهود ولم يكونوا مخلصين للرسول فكان مهمهم منحصراً في أن يصبوا الزيت ليزيدوا في إشعال نار العداء بين الرسول وبين اليهود وقد عرف بعضهم عند المسلمين باسم المناقين وكان عبدالله بن أبى من زعماء هؤلاء المناقين وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة الى يوم واقعة بدر الكبرى

ويظهر ان اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفى بنشر دعوته الدينية بين القبائل العربية ونستنتج ذلك من أنهم لم يكونوا يرغبون في محاربة الأنصار مع أن يوم بدر كانت فرصة مناسبة لمن كان في مركزهم

وكان البى لا يريد أن يحارب اليهود في تلك الظروف التي لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم في حرب حتى تتحسن الأحوال وتكون أكثر ملاءمة وفي الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات لأن السلام والسكينة أساس النجاح في الأعمال التجارية والصناعية

ويميل بعض المستشرقين الى الرأي القائل بأن الحالة كادت ترجع بين اليهود والمسلمين الى ما كانت عليه قبل اشتداد النفور والخصومة من الألفة والولاء لولا أن حدثت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً على قريش^(١) فقد أصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم أصحاب الأمر والنهي في مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالتأمر من الافراد والجماعات التي أسادت اليهم وطعنت في أعراضهم ولم يشترك اليهود مع الرسول في محاربة قريش يوم بدر لأنه لم يكن مشروطاً عليهم في المهادنة أن يشتركوا في الغزوات الخارجية عن دائرة المنطقة اليمينية وكذلك كان عدد الأوس والخزرج في هذه المعركة قليلاً وكان أغلب المحاربين من المهاجرين

كان النبي في أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود في الاسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم الى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم في حرب دامية

لذلك ظهرت عند الأنصار بعد وقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين ان يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربهم حتى يجلوم

وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جداً إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج

وكان أعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبي على الشروع في محاربة

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١١٦ — ٢٣١

(٢) تاريخ الخلفاء جزء ١ ص ٤٠٦ و ٤٠٨ في قتل الصماء بنت مروان وقتل

أبي عبيد

اليهود كما وضعنا ذلك من قبل

ويحدثنا ابن هشام عن هذه الأحوال فيقول أنه بعد مرور بضعة أيام من موقعة بدر جاء الرسول إلى بني قينقاع وجمعهم بسوقهم ثم قال « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فانكم قد عرقتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله اليكم ^(١) »

وأنى لا أعتقد أن لأصرار النبي على دخول اليهود في الاسلام سبباً آخر فوق الأسباب التي ذكرتها وهو أن دخول أهل الكتاب في الاسلام يزيد في هيئته ويكبر شأنه في نظر قريش ذات المجد التليد وتدخل الجماعات الكثيرة في الاسلام بدون مقاومة

أما الأسباب التي حملت النبي على البدء بمحاربة بني قينقاع من بين جميع اليهود فترجع إلى أن بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة في حي واحد من أحياء الاقوام العربية فأراد النبي أن يطهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه

وغنى عن البيان أن بني قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة والحلى الكثيرة من الفضة والذهب وكان العرب يطعمون في كل ذلك

ثم كان عدد بني قينقاع غير كثير فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال ثأقتهم .

وفوق كل هذا قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم بعاث وقد أثنى بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ووزعهم كل ممزق مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من

وقع في أيديهم من اليهود وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بسات حتى وقعت الحرب بين الانصار وبين بني قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الانصار

وقد أشار القرآن الى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله « ولذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوك أسارى قتادهم وهو محرم عليكم إخراجهم ... (١)

فيظهر من هذه الآية مقدار ما كان بين بني قينقاع وبين بني النضير وقريظة من العداوة والبغضاء ويظهر أيضاً أن بني قينقاع كانوا أصحاب مزارع فأخرجهم أبناء جلدتهم منها وأرغمهم على الالتجاء الى حي واحد في داخل المدينة على أن هناك عاملاً آخر ذا قيمة كبيرة في حل الرسول على البدء بمحاربة بني قينقاع وهو أن بني قينقاع كانوا من موالى بني الخزرج وكانت أغلب بطون بني الخزرج قد دخلت في الاسلام ما عدا بطن عبد الله بن أبي قد كان يظهر الايمان ويبطن الكفر وكانت بطون بني الخزرج توافق على مشروعلت النبي بطون معارضة



ننتقل من هذا الى ما رده به بنو قينقاع على أقوال النبي إذ أجابوا بكل جرأة وتبجح « يا محمد لا يفرئك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن اننا نحن القوم (٢)

ويظهر من هذا الرد أن بني قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شيء إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن

(١) سورة البقرة آية ١٧٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٣٤

بنى قينقاع يجرؤ على اعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ولكن بنى الخزرج
خلفوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم أنهم من واليهم
« وحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه فقام اليه عبد الله بن أبي قتال
يا محمد أحسن الى موالى وكأوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه الرسول فقال يا محمد
أحسن الى موالى فأعرض عنه النبي فأدخل عبد الله يده فى جيب درع الرسول فقال
له الرسول أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجه ظللا قال ويحك أرسلنى قل لا والله
لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوا من الاحمر
والاسود تمصدهم فى غداة واحدة انى والله امرؤ اخشى العوائر فقال الرسول لم
لك . . . وكان محاصراً بإيام خمس عشرة ليلة . . . ثم أجلاهم الرسول من المدينة
فخرجوا منها الى اذرعات بالشام » ^(١)

ويحدثنا الواقدى أن الرسول أمر بجمع أموالهم وأسلحتهم ثم قسمها على
الأنصار بعد أن حجز منها الحس وأبقى لبنى قينقاع ذرارهم ونساءهم وأهلهم
ثلاثة أيام ولما رحل بنو قينقاع من يثرب نزلوا بوادى القرى حيث احتفى بهم اخواتهم
من اليهود فأقاموا عندهم على الرحب والسعة الى أن رحلوا نهائياً الى الشام ^(٢)
وفى ابن هشام قصة يذكرها على أنها تتضمن السبب فى اعلان المسلمين
الحرب على بنى قينقاع الا أن المستشرقين لاحظوا أنه لم يروها عن ابن اسحق
الذى هو المرجح الثقة لابن هشام ثم هى ليست موجودة فى كتاب الواقدى لذلك
هم يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية « وحوالها ان امرأة من العرب جلست الى
صائع بسوق بنى قينقاع ففعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى
فعمد الصائع الى طرف ثوبها فقده الى طوقها فلما انكشفت سواها ضحكوا منها
فوقع الشربين الأنصار وبين بنى قينقاع » ^(٣)

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) الواقدى ص ٩٤

(٣) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

وقد أشار القرآن الى حادثة اجلاء بنى قينقاع عن المدينة بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فتنتين التقنا فقة قتال في سبيل الله وأخرى كفرة يرفوهم مثلهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى الأبصار^(١) »



يظهر ان أمر اجلاء بنى قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمى المسلمين بقوارص السكلم ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن دخلت في الاسلام فانفسح المجال أمام النبي لنشر دعوته

ثم جاء يوم أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة « غرحت قريش بمجدها وجدها وأحايشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وخرحوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه عمرو بن العاص وغيره من الزعماء فأقبلوا حتى نزلوا بحنين جبل يبطن السبخة من قاة على شفير الوادي مقابل المدينة » ثم خرج اليهم رسول الله في ألف من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انحدر عنه عبد الله بن أبي ثعلث الناس وقال علام قتل أنفسنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل الريب والنفاق^(٢)

ولم يشترك أحد من اليهود في واقعة أحد الا رجل اسمه غخير بن « كان رجلا غنياً كثير النخيل وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد في علمه وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد^(٣) »

(١) آل عمران آية ١٢

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٦ — ٤١٢

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١١٠

وقد كانت موقعة أحد في يوم سبت فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم ورفضوا الاشتراك مع الرسول في غزوة أحد معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيداً عن المدينة كما ذكرنا سابقاً

ولكن مخيريق اليهودي قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدهته وقال ان أصبت قتالى لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا الى رسول الله فقاتل معه حتى قتل فقال الرسول مخيريق خير اليهود (١)

وفي ابن هشام زعم منسوب لغير ابن اسحاق ملخصه ان الأنصار سألوا النبي يوم أحد : ألا تستعين بحلفائنا من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم (٢)

غير ان المستشرقين يرتابون في صحة هذا الحديث كما هو شأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن اسحق ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من اليهود بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد واتخذ من امتناعهم عن ذلك سبباً لاعلانه الحرب على بني النضير كما سنبين ذلك فيما بعد

ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما قلناه عن ابن هشام نفسه من ثناء الرسول على مخيريق وقوله مخيريق خير اليهود فانه لم يقل ذلك الا لان مخيريقاً لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود

ولصاحب الطبقات الكرى رواية تفيد أن النبي بعد ان خرج بجيوش المسلمين الى أحد حتى اذا كان الشيوخين وهما أطمان التفت فنظر الى كتيبة خشناء لها زجل فقال : ما هذه قلوا : حلواء بن أبي من جهود فقال رسول الله : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك . . (٣)

(١) ابن هشام - ٢ ص ٣٧٣

(٢) ابن هشام - ٢ ص ٣٧٣

(٣) ابن سعد - ٢ ص ٢٧

اما نحن فنفض الطرف عن هذه الرواية لانها تناقض ما قصصنا عن ابن اسحق. على أن الذي يحسن نظره في الحالة التي كان عليها اليهود بعد اجلاء بني قينقاع عن المدينة يتضح له جلياً أنه لم يبق لعبد الله بن أبي موال من اليهود اذ كان بنو النضير وقريظة من أعدائه كما مر ذلك في عدة مواضع . . . ودخلت الأشهر الحرم بعد يوم أحد فلم يحصل فيها نضال ولا قتال ثم اتجه النبي لمحاربة بني النضير

وهنا نقطة خلاف هامة بين ابن هشام وبين اليعقوبي فابن هشام يقول ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد خروج بني قينقاع من المدينة أى في ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة ويذكر ابن هشام أنه بعد قتل ابن الأشرف قال الرسول « من ظفرت به من اليهود فقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على بن سينة رجل من تجار اليهود كان يلبسهم ويساعدهم فقتله وكان حويصة بن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول : أى عدو الله أقتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ا قل محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك . . . (٢)

ولكن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد (١) أى قبيل محاصرته لبني النضير أى في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة وكان قتله بمثابة اعلان الحرب عليهم لأنه كان زعيماً من زعمائهم وكان قاتله أبو نائلة أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ومعه أربعة من الانصار (٣)

ويقول العالم Leszynsky إن العلاقات بين الرسول وبين بني النضير كانت على ما يرام قبل يوم أحد فلو ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد اجلاء بني

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤٤

(٢) تاريخ اليعقوبي جزء ٢ ص ٤٩ وتاريخ الخيس جزء ١ ص ٤٦٤

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٤٤

فينتقح أى قبل واقعة أحد لما أمكن أن تكون هناك علاقات حسنة بين الرسول وبين بنى النضير لان كعب بن الاشرف كان من زعماء بنى النضير وفوق ذلك فقد كان الرسول محتاجا الى معاضدتهم قبل يوم أحد^(١)

وإلى أميل الى رأى اليعقوبى وأعتبره تصحيحاً هاما لحادثة تاويخية كبيرة اذ لا يتصور أن الرسول يحرض انتصاره على قتل أفراد من اليهود قبل يوم أحد وليس هناك أى دليل على أن العداوة وجدت بين الانصار وبين بنى النضير الا قبيل محاصرة الانصار لآطام بنى النضير حيث كان اليهود يوجسون خيفة من أعمال الارهاب التى كان الانصار يقومون بها

ويرتاب المستشرقون فيما يقوله ابن هشام من أن سبب قتل كعب انما هو قصيدة الرثاء التى رثى بها قتلى بدر الكبرى وارتباب المستشرقين فى هذا مترتب على ارتبابهم فيما قاله ابن هشام عن وقت قتل كعب ويقولون انه أعوره المبرر لاقتياله كعب فى الوقت الذى ذكره فزعم أنه قصيدة الرثاء لقتلى بدر وانه التشبيب بنساء المسلمين^(٢)

ويحدثنا البخارى أن كعب بن الاشرف قد آذى الله ورسوله فاتاه محمد بن مسلمة فقال أردنا أن تسلفنا ومقا أو وسقين قال أترهنونى نساءكم قتلوا كيف ترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى أبناءكم قالوا كيف ترهنك ابناءنا فيُسب أحدهم فيقال رهن بسوق أو وسقين هذا عار علينا ولكن ترهنك السلاح قال سيفان يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتله ثم أتوا النبى فأخبروه^(٣)

ولصاحب الاغاثى قصيدة ينسبها لربيع بن أبى الحقيق تلائم الحالة التى كان عليها بنو النضير بعد قتل كعب ابن الاشرف

(١) Die Juden ٦٨ س

(٢) ابن هشام - ٢ س ٢٤٣

(٣) البظرى ج ٢ س ١١٥

ألا يا قَوْمِي لا أرى النجم طالماً ولا الشمس الا حاجبي بيمينى
معدبتي خلف القفا بصودها فجل تكبرى أن أقول ذريتي
أمين على أسرارهن وقد أرى أككون على الاسرار غير أمين
فللموت خير من حراج موطأ مع الطعن لا يأتي المحل لحين^(١)
أنذر النبي بنى النضير بأن يخرجوا من أطامهم وينزحوا من يثرب في مدة
شرة أيام ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار

وكان انذار الرسول لهم بذلك بمناسبة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في
واقعة أحد وكان الرسول كان يعتبرها كفرزة موجبة الى مدينة يثرب فكان على
بنى النضير أن يخرجوا لقاء العدو كما تقضى شروط المعاهدة
ثم يظهر ان بنى قريظة كانوا مرتبططين بمهد آخر غير عهد بنى النضير وأن
الشروط كانت غير شروط عهد بنى النضير اذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في
واقعة أحد كما طالب بنى النضير ولم يثار منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثار من
بنى النضير

وليس معقولا أن يفضب الرسول من بنى النضير لعدم خروجهم الى الوغى
في واقعة أحد دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها
ويعتقد العالم Leszynsky ان ما جاء في الحديث من ان يوم السبت يوم عبوس
وغدر يرجع الى اعتذار بنى النضير المفقوت وان جميع الأحاديث التي من هذا
النوع ترجع الى حادثة تاريخية ومن هنا نفهم ان غضب الرسول من اعتذار بنى
النضير قد ترك في نفسه أثراً سيئاً من نحو يوم السبت بوجه عام^(٢)
ويقول الاستاذ النجار ان هذا القول ليس حديثاً وانما هو من كلام الناس

(١) الاعاني ج ٢١ ص ٦٢
(٢) ص ٧٠ Die Juden ...

على أن بعضاً يتشام به كما أن بعض الناس يمين به ويتشام بنيره وليس ذلك من الحديث في شيء... اهـ

ويذكر مؤرخو العرب سبباً آخر لإعلان الحرب على بني النضير غيماً متناع اليهود عن الاشتراك في يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت فيقول ابن هشام : أن الرسول خرج الى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله عقده لها فلما أتاها رسول الله يستعينهم قالوا نعم يا أبا القاسم نعمينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — والرسول الى جنب جدار من بيوتهم قاعداً — فن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيرمينا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة فأتى رسول الله من السماء الخبير بما أراد القوم ققام وخرج راجعاً الى المدينة فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى اتوا اليه فأخبرهم انابر بما كانت اليهود أرادت من القدر به فأمر النبي بالتهيو لحرمهم والسير اليهم... (١)

لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبهم بعدم وجود ذكرها في سورة الحشر التي نزلت بعد احلاء بني النضير

على اننا لو سلمنا صحة هذه الرواية فأننا لانجدها كافية لانتهاز الحرب على جميع بطون بني النضير اذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى

والذي يظهر لكل ذي عينين أن بني النضير لم يكونوا ينوون القدر بالنبي

واغتياله على مثل هذه الصورة لانهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لالتقاء الصخرة عليه من فوق الحائط بل كان في استطاعتهم أن يفتكوه وهو يحاذيهم اذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه

وقد أراد بنو النضير أن ينزعوا الحكم الرسول ويحلوا عن يثرب ولكن « رهطاً من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي وداعة بن مالك وسويد وداعي قد بعثوا الى بنى النضير أن البشوا وتمتعوا قائلاً لن نسلحكم ان قتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم قدر بصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ^(١) وقد طلب بنو النضير من بنى قريظة أن ينجبهم فلم يفعلوا وصرح كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة انه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأنصار ^(٢)

ويشير القرآن الى غدر عبد الله وقومه يهود بنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين ناقضوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ان أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لن أخرجوا لا يخرجون معهم ولن قوتلوا لا ينصرونهم ولن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون... ^(٣)

وكانت أطام بنى النضير حصينة جداً وكان من الحال فتحها في مدة وجيزة ولا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة أو من وراء جدر... ^(٤) لذلك أمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها فتادوه ان يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها.... ^(٥)

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٢) الواقدي ص ١٦٣

(٣) سورة المفسر آية ١١

(٤) سورة المفسر آية ١٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠ وحديث البخارى جزء ٢ ص ٢٥٢

ويظهر أن قطع النخل ونحره كان سبباً في تسرب اليأس الى قلوب اليهود اذ وجدوا أنفسهم بين أمرين اما الاذعان لحكم الرسول واما الخروج من المدينة لمهاجرة المسلمين ومنهم من حرق النخل وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة فاختاروا الاذعان لحكم الرسول وكان ذلك رأى سلام بن مشكم « فسأل الرسول أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام بأذرع فكلت أشرافهم من سار منهم الى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحبي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها^(١)

وقبل أن ينزح بنو النضير من منازلهم هدموا البيوت عن نجاف بابهم فوضعوها على ظهر البعير وانطلقوا بها^(٢) وكانت هذه الرواية المهمة سبباً في أن يقول بعض المستشرقين ان الاخشاب كانت غالية في الاقاليم الصحراوية فأخذها اليهود معهم ليبيموها ولكننا لا نميل الى تفسير ذلك على هذا المنوال بل أقول ان هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي أن كل يهودى يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل أن يحتفظوا بالايمان بالله واحد ولا يبدلوه ولو عبدوا وقتلوا^(٣) فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة (*Shema*) في داخل النجاف خوفاً من اتلاف الهواء أو من الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها

ويقول القرآن بصدد اجلاء بني النضير « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم

(١) جزء ٣ ص ٥١ ابن هشام

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٣) كتاب تنية فصل ٦ آية ٥

حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون
بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الألباب^(١)
ويصف ابن هشام خروجهم من آطامهم بقوله « انه حدث أنهم انتقلوا
بالنساء والابناء والاموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم... »^(٢)
ويقول الواقدي إن النساء تحلين بحليهن وتزين أحسن زينة حتى بدت
الواحدة منهن غاية في الجمال وكان يبدو عليهن السرور والابتهاج بدرجة أدهشت
السلميين وأما مناهو المدينة فقد نكسوا رؤسهم بعد ذلك حتى قال عبد الله بن
أبي أنه قد أصبح يشعر بأنه صار رجلاً أجنبياً في وطنه غريباً عن بلاده بعد
اجلاء بني النضير^(٣)

وقد غم الانصار بقية الامتعة التي لم يستطع بنو النضير حملها معهم وكان
منها ٥٠ درعاً و ٣٤٠ سيفاً^(٤)

وقد كانت هذه المغنم لرسول الله خاصة يصعبها حيث يشاء قسماً على
المهاجرين الاولين دون الانصار الا أن سهل بن حنيف وأبا دجاجة ذكرا فأعطاهما
الرسول^(٥) ويذكر القرآن هذه المغنم « لفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم
وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم
الصادقون^(٦) »

ولم يسلم من بني النضير الا رحلان يا مينا بن عير وأبو سعد بن وهب أسلما
على أموالهما فاحرزاهما^(٧)

(١) سورة المخر آية ٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ١٦٥

(٤) الواقدي ص ١٦٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٦) سورة المخر آية ٨

(٨) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

وقد قيل بمناسبة اجلاء بنى النضير شعر كثير بعضه مدح وبعضه ذم وأهم ما يلفت نظرنا من ذلك الشعر قصيدة قلها عباس بن مرداس يذكر جلاء بنى النضير ويكيهم

لو ان قطين الدار لم يتحملوا وجدت خللا الدار ملهى وملعبا
فانك عمرى هل رأيت ظمائنا سلكن على ركن الشطا فتياها
اذا جاء باغى الخير قلن بشامة له بوجوه كالدنانير مرجبا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن شكيم سلام ولا مولى حبي بن أخطبا
قال خوات لعباس بن مرداس أنت الذى رثيت اليهود وقد كان منهم فى
عداوة الله ما كان قال عباس انهم كانوا أحلافى فى الجاهلة وكانوا قوماً أنزل
بهم فيكرهونى ومثلى يشكر ما صنع اليه من الجليل ثم أنشد

هجوت صنع الكاهنين وفيكم لهم نعم كانت من الدهر تربيا
أولئك أخرى إن بكيت عليهم وقوهك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير منبة وأوفق فعلا لذى كان أصوبا
فصرت كن أمسى يقطع رأسه ليبلغ عزا كلن فيه مركبا
فبك بنى هارون واذا كر فعالمهم وقتلهم للحوج إذ كان مسخبا
أخوات أذر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فانك لو لاقيتهم فى ديارهم لالفت عسا قد هول منكبا
سراع الى العليا كرام لدى الوغى يقال لباغى الخير أهلا ومرجبا

البَابُ السَّابِعُ

غزوة بني قريظة

تمريض زعماء بني النضير لبنى قريش وغطفان على محاربة المسلمين — انجبار زعماء بني النضير الى بني قريش الوثنيين — هل تعتبر هذه المحاولة عملاً غنائماً لاوامر التوراة ؟ — احتجاج القرآن على هذه المحاولة — يوم الاحزاب — مطامع قريش وغطفان واليهود من وراء هذه الغزوة — تمريض حبي بن أخطب لبني قريظة على قمع مهادنتهم مع الرسول — محاولة سرية بين الرسول وبين غطفان — فشل يوم الاحزاب وأسبابه — حصار الرسول لبني قريظة — نزول بني قريظة على حكم للرسول — اشتقاق الاوس على حلفائهم بني قريظة — تنفيذ حكم الاعدام في رجال بني قريظة — نتيجة غزوة بني قريظة — كثرة شر العرب في يوم الاحزاب وبني قريظة

لما نزل أشراف بني النضير في خير أخذوا يفكرون في الثأر من الانصار وجعلوا يفكرون في الوسائل التي توصلهم الى أطماعهم وتردّم الى مزارعهم في منطقة يثرب فمزّم نفر من اليهود فيهم سلام بن ابى الحقيق وحبي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يمزّبوا الاحزاب على المسلمين « فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعّوهم الى حرب رسول الله وقالوا انا مسكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا مشر اليهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه قلوا بل دينكم خير من دينه وأتم أولى بالحق فلما قلوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعّوهم اليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعّوهم الى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد

تأبسونهم على ذلك فلجئتموهم فيه . . . (١)

ومن ينظر الى حالة بنى النضير التبعة التى صاروا عليها بسبب اجلاتهم عن بلاد سكنتها منذ قرون وكأثروا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أرضهم وبجنتهم عن الانصار والحلفاء اللذين يعينونهم على تحقيق أملهم والتأثر من خصومتهم فلف هذه سحابة من السحاي البشرية وطبيعة من الطباع الانسانية بل وعمل مشروع مقبول لدى جميع الامم

لكن الذى يلامون عليه بحق والذى يؤلم كل مؤمن بالله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية

نعم ان ضرورات الحروب أبلحت للام استعمال الحيل والاكاذيب والتوصل بالتدليس والاضاليل للتغلب على العدو ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدى بهم الامر الى عدم اجابة مطلبهم لأن بنى اسرائيل اللذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الامم الوثنية باسم الآباء الاقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لانحصى من قتل واضطهاد بسبب ايمانهم بالله واحد فى عصور شتى من الادوار التاريخية كان من واجبهم أن يصحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخلصوا المشركين

هذا فضلا عن أنهم بالتجأهم الى عبدة الاصنام انما كانوا يجاريون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الاصنام

والوقوف معهم موقف الخصومة

وقد أشار القرآن الى عمل النفر من اليهود ونحزبهم مع قريش وغطفان على الاسلام بقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجلبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ^(١)

ثم أقبلت جموع قريش في شوال سنة خمس ونزلت بمجمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحاديثهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا يندب نَقْعَى الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره الخندق بينه وبين القوم .. ^(٢)

وقد أخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكائل من بني قريظة الذين بقوا على الولاء ولم يقصوا عهدهم فحفروا بها الخندق حول المدينة ^(٣)

ويعتقد المستشرقون أن مؤرخي العرب قد بالغوا في اخبار يوم الخندق وأدخلوا فيها الاساطير التي تسد على الباحث سبيل استخلاص الصحيح من الحوادث . وكان للحزبان في يوم الخندق قوة عظيمة لا تقل عن ١٠٠٠٠ مقاتل وكانت مسلحين باغفر الاسلحة وكانت لديهم الخيول الكثيرة فان استمدادهم كان كاملا من الوجبة المادية ولكنه كان ناقصاً قصاً كبيراً من الوجبة المعنوية اذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم ونحلهم على الاخلاص في أعمال الحرب

فقد كان السبب في اشتراك غطفان في هذه الحرب أن اليهود وعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع وحدائق خيبر ^(٤) اذا تم لهم النصر وكانت

(١) سورة النساء ٥١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٣) الرازي ص ١٩٣

(٤) الرازي ١٩١

قريش تريد من مواصلة القتال أن تثار لقتلى بدر وأحد
وهناك سبب آخر لم يذكره المؤرخون من العرب والافرنج وهو أن قريشاً
رأت أن وجود قوة معادية لاهل مكة في شمال الحجاز ضار بهم ومؤد الى كساد
تجارة مكة فكأنهم قد اضطروا الى الحرب اضطاراً ليتسكنوا من أن يفتنحوا
لتجارتهن طريق القوافل الى الشام
وقد دخل أبو سفيان ونفر من زعماء قريش بين استار الكعبة حتى التصقت
أكبادهم بها وأقسموا ليواصلن القتال حتى لا يبقى فيهم رمق من الحياة (١)
وأما اليهود فقد كان رائداهم غير الذي كان لحلفائهم من بني قريش وغطفان
كما ذكرنا قبلاً

وقد كان هناك عامل آخر أضعف من قوة هذا الجيش العظيم وتقص من هيئته
ذلك انه لم يكن وحده القيادة فلم يكن الأركله فيه بيد أبي سفيان قائد قريش
لذلك سرعان ما ظهر الخلاف في الرأي والعمل بين قواد الجيوش
وبعد أن مضت بضعة أيام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات
والمبارزات اتضح لزعماء الاحزاب أن الحرب قد لا تنتهى الا اذا انضم بنو
قريظة اليهم فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم إمكان جيوش
الاحزاب أن تتعرض لهم من جهة أخرى مما يزيد في قوة المحصورين الذين
كانوا يأخذون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر وكانت أطاأهم بين جيوش
المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذي لا يتحرق

لذلك أخذ حبي بن أخطب صاحب مشروع يوم الخندق يؤثر في أبناء جلدته
من بني قريظة ويحرضهم على تقض المعاهدة التي كانت بين كعب بن أسد
والرسول ويقول له « قد جئتكم بجز الدهر ويبحر طام جئتكم بقريش وسادتها

حتى أنزلتهم بمجتمع الاميال قلم يفلح في أول الامر لان الزعيم القرظي أبى أن ينقض صحبته مع الأنصار وقال يا حيي بن أخطب جئتني والله بذل الدهر وبجهاهم قد هراق ماؤه فهو يرعد ويرق ليس فيه شيء ويحك فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حيي يكذب يقتل له في الضرورة والغارب حتى صبح بما طلب وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قریش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرى مما كان بينه وبين الرسول . . (١)

وقد أرب هذا العمل المسلمين لانهم علموا ما يحتمل أن ينجم من انضمام بني قريظة الى الاعداء واقتراب جيوش الاحزاب الى يثرب وقد عظم البلاء واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن وبجم التفاق بين بعض المناققين حتى قال أحدهم كان محمد يمدنا كنوز كسرى وقيصروا أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط . . . ولما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله بعض رجاله الى قائدى غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معها عنه وعن أصحابه فخرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب . . . (٢)

وقد كان هذا الاتفاق بمثابة الهزيمة التامة لجيوش الاحزاب إذ أخذ القواد بعده يتناولون للنساء وأخذت كل فئة تضر الشر للآخرى ثم فسد الامر بين الاحزاب وبين بني قريظة حيث شعر بنو قريظة أن تغييرا أخذ يطرأ على الحالة فطلبوا من حلفائهم رهائن من الناس وأحد بنو قریش وغطفان يلوهون بني قريظة ويقولون لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف والخافر فأعدوا للقتال حتى تناجز محمدا فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا فاننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا الى بلادكم

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

وتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فارسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن وأما بنو قريش وغطفان قاتلوا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا فإذا كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فآبى عليهم بنو قريظة

وبعث الله عليهم الريح في ليل ثانية شديدة البرد فجعلت تكفأ قبورهم وتطرح آيتهم . . . ثم تهبأت قريش وغطفان للرجيل فانشمرت راجعة الى بلادها . . . (١)

وقد وافق المستشرقون على معظم أخبار الخندق التي سردناها الى هنا وأما التي لا يوافقون عليه فهو ما جاء في المراجع العربية من أنه بعد أن كتبت المعاهدة بين المسلمين وبين قائد غطفان تناول سعد بن معاذ الصحيفة فحما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا . . . (٢)

لان ذلك قد يناقض الواقع اذ دب روح الشقاق بين الاحزاب بعد اثبات هذه الصحيفة بين الرسول وبين غطفان لا قبلها

على أن غطفان لم تشرك في القتال الا طمعا في ثمار خيبر وقد علم الرسول ذلك حتى العلم فوعد غطفان ما وعد وفصلت غطفان ما وعدها به الرسول على ما اتفقت مع اليهود عليه وإن كان أقل اذ كان ثلث ثمار المدينة لاتها رأت أنها ستغوز بهذه المنحة دون أن تسفك قطرة واحدة من دماءها

وبلاحظ العالم Leszynsky أن رواية تناول سعد بن معاذ للصحيفة وتمزيقه اياها تشبه ما يقال عن الرومان أثناء حصار جيوش الفلواة لمدينة روما اذ حدث أنه بعد أن تعهد المحصورون بأن يدفعوا غرامة مالية للحيوش المتوحشة تقدم بطل من أبطال روما فتناول المعاهدة ومزقها قائلا : ان روما لا تشتري استسلامها بالدرهم واني سأغسل عن وطني هذا العار . . . ولكن روما دفعت الفراه وعادت حيوش

(١) ابى هشام - ٣ ص ٨٤

(٢) ابن هشام - ٣ ص ٧٧

الغلاة الى وطنها . . . (١)

وهناك سؤال يتردد في نفس الباحث وهو لماذا لم يطلب بنو قريظة من قريش وغطفان رهن الرجال قبل تلك الصحيفة لكن يظهر أن قريشا لم تترك أن الشر إنما جاء من ناحية غطفان لأن الصحيفة كانت من قبيل المعاهدات السرية التي تعتمد بين الدول في الوقت الحاضر (٢)

وبها يكن من شيء فقد تخلص المسلمون من خطر جسيم كان يهدد كيانهم فمضت بهم وينذر بسقوط يثرب

وقد نتج من انضمام بنى قريظة الى جيوش الاحزاب ونقصهم المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي أن الرسول لم يهل عليهم بعد تخلصه من جيوش الاحزاب بل بدأ يحاصرهم في نفس اليوم الذي أخذت فيه قريش وغطفان تنجلي عن المدينة حتى أنه أمر من كان معه سامعا مطيعا ألا يصلوا العصر الا بينى قريظة

ولم يقدر حبي بن أخطب الذي كان سببا في نقض المعاهدة بين بنى قريظة وبين المسلمين بما كان قد عاهد عليه كعب بن أسد بل وفي بعده وانضم الى أبناء جلدته ودخل معهم الحصن حيث استمروا محصورين خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدم الحصار

ولسنا نعلم اذا كان قد حدثت ماوشات بين الفريقين أثناء هذه المدة أم لم تحدث

لكن يظهر أن بنى قريظة كانوا يميلون الى الهدوء والسلام لانهم كانوا رجال فلاحه وزراعة فلم يكونوا في القوة والبطش والحاس الحربى بالدرجة التي كان عليها بنو قينقاع وبنو البصير وبما يؤيد ذلك أن بنى النضير كانوا يدعون الدية كاملة

(١) ابن هشام - ٣ - ص ٧٤

(٢) ابن هشام - ٣ - ص ٨٣

بمخلاف بنى قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط (١)

من أجل ذلك كانت العرب ينتظرون الى بنى قريظة بين غير التي كانوا
ينتظرون بها الى غيرهم من البطون اليهودية الاخرى

وليس معنى هذا أن بنى قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه
انهم كانوا أقل من البطون الاخرى في ذلك ومع هذا أبوا بلاء حسنا في يوم
بمات وأبدوا من الشجاعة وقوة العزيمة ما يستحق الاحترام وأيضا فاتهم قد منعوا
حصنهم خمسا وعشرين ليلة ولم ينزلوا الا حين أقصوا بالهلاك

على أن الواقدي يصرح بأنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء
الحصار حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة (٢) كما يذكر ابن هشام
أن بعض الانصار من الخزرج وبني حارثة قتلوا في هذه المقاتلة الضعيفة (٣) ولم
يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام مرة واحدة طول مدة الحصار لان عدد
المسلمين كان يربو على الآلاف بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز سبعمائة الا قليلا
ولما أيقنوا أن مقاومة جيش الانصار لا تفيدهم فتيلا وأنهم سوف يقعون في
قبضتهم مع ما طال الزمن بمنوا الى الرسول أن ابست النياح أبا لبابة لتستشيريه في
أمرنا فأرسله الرسول اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال وجلس اليه النساء والصبيان
يكونون في وجهه فرق لهم وقلوا له يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد قل نعم
وأشار بيده الى حلقه انه الذبح وقال أبو لبابة فوالله ما زالت قدمي من مكانها
حتى عرفت أني قد خنت رسول الله ثم اطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول
الله حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى
يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا أطأ بنى قريظة أبدا ولا أرى في بلد
خنت الله ورسوله فيه أبدا . . . واقام أبو لبابة مرتبطا بالجدع ست ليال تأتيه

(١) الواقدي ص ٢١٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط ببلجندع الى أن أطلقه النبي (١)

ويظهر مما جاء في كتاب الواقدي أن بني قريظة قبلت أن تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد أن الأنصار يماثلونهم كما عاملوا بني قينقاع والنضير (٢) وربما كان هذا هو سبب خيانة أبي لبابة إذ أشار الى العنق تلميحا الى الحكم الذي سينفذ في بني قريظة بعد خضوعهم

وكان بنو الأوس يستقنون كما اعتقد بنو قريظة في نتيجة حكم الرسول فتحملهم لما أصبحوا نزل اليهود على حكم رسول الله فتوانست الأوس فقالوا يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالى اخواننا بالأوس ما قد فعلت فقال الرسول ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قلوا بلى قال فذاك الى سعد بن معاذ ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء . . . (٣)

ولا شك أن اليهود لم يـُـكونوا ينظرون الى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس ولا الى غدو سعد بن معاذ بهم ولم ينجم كما نجى عبد الله ابن أبي حلفاءه من بني قينقاع . . . (٤)

وكان بنو قريظة طول الليل قبل اعدامهم يقرأون في كتاب الزبور ويتناقشون في شؤون الدين الاسرائيلي حيث اتفقوا على أن ينصروه الى آخر رمق من الحياة (٥)

أما تنفيذ حكم الاعدام في رجال بني قريظة فقد نعلم أن الرسول خرج الى سوق المدينة فخذق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٨٩

(٢) الواقدي ٢١٣

(٣) ابن هشام - ٣ ص ٩٢ — حديث للبصري - ٢ ص ٢٥٩

(٤) ابن هشام - ٣ ص ٨١

(٥) الواقدي ص ٢١٦

يخرج بهم إليهم إرسالا وفيهم يحيى بن الخطيب وكعب بن أسد رأس القوم وهم سبائة والمكثر لم يقول تسعة ولما أتى يحيى بن الخطيب وعليه حلة قحاحية (ضرب من الوشي) قد شقها من كل ناحية قدر أكمة لثلاث يسلبها أحد فلما نظر إلى رسول الله قال أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر ولمحة كتبها الله على يحيى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه . . . (١)

وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بني قريظة على أبناء جلدته قبل خروجه من أطامهم أن يعتنقوا الاسلام « فيأمنوا على دمايتهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره (٢)

هذه الجملة تدل على رسوخ الديانة في نفوس بني قريظة واتهم ما كانوا ليعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم والمحافظة على عقائدهم

وقد قلنا إن بني قريظة أظهروا المعجز في الشؤون الحربية بالنسبة للبطون الأخرى ويتضح ذلك من حديث لابن هشام إذ قال كعب بن أسد لقومه إذا أتيتم على هذه (الدخول في الاسلام) فسلم فليقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم تترك وراءنا قتيلا حتى يحكم الله بيننا وبينهم فإن نهلك نهلك ولم تترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظر فلعمري لنحصد النساء والأبناء قتلوا هؤلاء المساكين فما خير العيش بدمهم قال فإن أتيتم على هذه فإن الليسلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آتوا فيها قاتلوا لعلنا نصيب منهم غرة قلوا نفس ستتنا علينا ونحدث فيه ما لم يكن ممن كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسيح قل ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حارما . . . (٣)

(١) ابن هشام - ٣ ص ٩٤

(٢) ابن هشام - ٣ ص ٨٨

(٣) ابن هشام - ٣ ص ٨٨

وقد اشترك الأوس في قتل حلفائهم فإنه لما شرعت « الخروج تضرب أعناقهم ويسرم ذلك فنظر رسول الله إلى الأوس فلم يرد ذلك فيهم فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة وقال ليضرب فلان وليذفف فلان... (١)

وقد أظهر بعض اليهود في نكبتهم هذه من الشجاعة ما يستوقف النظر فمن ذلك ما حدث للزبير مع أحد الانصار ، ذلك « أن الزبير كان قد من على ثابت ابن قيس في يوم بعث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال يا عبد الرحمن هل تعرفني قل وهل يجمل مثلي مثلك قال اني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي قال ان الكريم يجزي الكريم ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله فقال يا رسول الله انه قد كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فحب لي دمه فقال رسول الله هو لك فأتاه فقال ان رسول الله قد وهب لي دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة قال فأتى ثابت رسول الله فقال نأى أنت وأمي يا رسول الله حب لي امرأته وولده قال هم لك قال فأتاه فقال قد وهب لي رسول الله أهلك وولدتك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله مالك فهو لك قال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه امرأة صينية يترأى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادى جبي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمنا اذا شددنا وحاميتنا اذا مررنا عرال بن معمر قال قتل قال فما فعل المجلسان يعنى بنى كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال ذهبا وقتلوا قال فأتى أسالك يا ثابت بيدى عندك الا ألحقنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير فإنا بصابر

فهُ قَتْلُهُ دَلِيلٌ نَاضِحٌ حَتَّى الْبَتَى الْإِجَابَةُ قَدَمُهُ ثَابِتٌ فَضَرْبُ عُنُقِهِ . . . (١)

وَكُنَّ الْمُسْلِمُونَ لَا يَقْتُلُونَ فِي غَزَوَاتِهِمُ النِّسَاءَ وَالْقُرَارَى وَكُلٌّ مِنْ لَا يَنْبَغُ مِنَ الرِّجَالِ (٢) لَكِنْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ قَتَلَتْ امْرَأَةً وَاحِدَةً وَقَدْ انْطَلَقُوا بِهَا لِقَتْلٍ وَعَلَى نَفْسِهَا عَلَامَةُ الْحَبُورِ وَالْإِبْتِهَاجِ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ زَوْجَ الرَّسُولِ : فَوَاقَهُ مَا أُنْسَى عَجَبًا مِنْهَا طَيِّبٌ نَفْسَهَا وَكَثْرَةُ ضَحْكُهَا وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تَقْتُلُ (٣)

وَقَدْ نَجَّى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَقْتُلُوا لِأَنَّهُمْ اعْتَنَقُوا الْإِسْلَامَ فَأَقَامُوا عَلَى نِسَائِهِمْ وَخِرَارِهِمْ وَأَمْلَاكَهُمْ وَقَدْ بَقِيَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ فِي الْمَدِينَةِ أَمَّا رَابِعُهُمْ فَقَدْ خَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَثْرِبَ لَيْلَةَ إِسْلَامِهِ وَلَمْ يَدْرَ أَحَدٌ إِلَى أَيْنَ ذَهَبَ (٤)

وَلَمْ يَكُنِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَوْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَلْ كَانُوا مِنْ بَنِي هَدَلٍ وَهُمْ بَطْنٌ مِنَ الْبَطُونِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَهْوَتْ وَلَمْ يَكُنْ عِدَدُ أَفْرَادِهَا مِنَ الْمَثُودِينَ كَبِيرًا فِي يَثْرِبَ

وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ قَدْ قَضَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ الْقَضَاءَ التَّامَ عَلَى بَطُونِ الْيَهُودِ فِي يَثْرِبَ وَقَدْ كَانَ الْقَضَاءُ عَلَى الْيَهُودِ هُوَ رَائِدُ بَطُونِ الْأَوْسِ وَالنَّظَرُ مِنْهُ السَّاعَةَ الْأُولَى لِمَجَاوِزَتِهِمْ لَمْ فِي يَثْرِبَ وَقَدْ بَدَلَتْ فِي هَذَا السَّبِيلِ جُهُودًا عَظِيمَةً فِي قِتْرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَلَمْ تَوْفُقْ حَتَّى جَاءَتْ الْحَوَادِثُ بَعْدَ الْمُهْجَرَةِ فَخَفَقَتْ آمَالُهُمْ وَاطْمَأَنَّنَتْ السِّيَاسَةُ فِي وَقْتٍ كَانَتْ خَامِدَةً فِيهِ تِلْكَ الْأَمَالُ

وَقَدْ طَرَأَ تَغْيِيرٌ عَظِيمٌ عَلَى يَثْرِبَ بَعْدَ خُرُوجِ الْيَهُودِ مِنْهَا إِذْ تَدَهَوْرَتْ شَتُونُهَا التِّجَارِيَّةُ وَالصَّنَاعِيَّةُ تَدَهَوْرًا تَدِيدًا وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ صَرِيحُ الرَّسُولِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ عَاصِمَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَمَا كَانَ لِيَثْرِبَ شَأْنٌ

(١) ابْنُ هِشَامٍ ٣ ص ٩٥ — الْوَاقِدِيُّ ص ٢١٩

(٢) حَدِيثُ الْبُخَارِيِّ ج ٢ ص ٢٥١

(٣) ابْنُ هِشَامٍ ٣ ص ٩٤

(٤) ابْنُ هِشَامٍ ج ٣ ص ٩٠

يذكر بعد تلك الحوادث في الجزيرة العربية
وقد اضطلع شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تعد إليها
مكائنها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية

هذا ما يميل إليه المستشرقون وقد يكون من الصعب تفنيد هذا الرأي
وتجريد من الصحة على أن هناك قطعة جوهريّة يجب أن نتنبه لها ونحن نبحث
أسباب الضعف الذي طرأ على يثرب بعد أن عحيت منها سلطة اليهود

قد يظهر لكل باحث في تاريخ المسلمين بعد الخندق وغزوة بني قريظة
ظاهرة جديدة في منطقة يثرب أولاً وفي الحجاز كله بعد زمن قصير : هي أن
مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة أهملت إهمالاً شديداً وأخذ أفراد البطون
وزعمائها يتجهون نحو الشؤون الحربية التي شغلت العرب بما جلبت لهم من المغنم
وبما مكنت لهم فيما يملك أعداء الاسلام في الجزيرة العربية

وبعد غزوة تبوك أخذت الجيوش الاسلامية تنفّر سورية والعراق ومصر
وأفريقيا الشمالية فلم تنق للأعمال القديمة المعروفة في الجاهلية قيمة كبيرة في كسب
الرزق واحراز المال والسلاح اذ كانت ثمار الأرض من بر أو تمر قليلة جداً
بالنسبة لما تغله الفتوح من مختلف الثمرات

وكذلك أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدي العبيد الذين جلبوهم
من الامم المغلوبة

ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العصر العربي وحده بل نجدها شاملة
لكل الامم في طور الانتقال من الفقر والبداءة الى الملك والاستعمار فقد نعلم أن
الامة اليونانية أخذت بعد خروج الاسكندر الاكبر لفتح ممالك الشرق تنحط
في الزراعة والتجارة وتهمل ما في بلادها من مصادر الثروة طمعاً في جلب ما في
الممالك الشرقية من المغنم الكثيرة والى مثل هذه الظاهرة يشير من كتب في

تاريخ روما بعد قهرها لأمم العالم القديم
أما الإهمال الذي وقع في منطقة يثرب فقد ظهر أثره بعد زمن قصير في مكة
اذ تدهورت شؤونها التجارية ولم تعد نسمع في التاريخ الإسلامي شيئاً عن قوافل
مكة الى يثرب والشام واليمن لانت عشائر قريش وزعماءها وجدوا أرواقهم فيها
انبسط لهم في الممالك الإسلامية ولولا الكعبة بمكة لظلت كسائر مدن الجزيرة التي
لم ترتق ولم تعظم بظهور الاسلام بل أصبحت خالية من أهلها العرب الذين طوحت
بهم مطامع الفتوح

على أن الدكتور طه حسين يرى أن انحطاط يثرب والحجاز عامة من الوجهة
المادية لم يكن ناشئاً عن اضماف اليهود واجلائهم وإنما كان نتيجة لازمة لانتقال
النشاط العربي الى جهة أخرى خارج البلاد العربية وهو يرى أن اليهود لو أنهم
ظلوا مسلمين لثني والمسلمين حتى تمت الفتوح لبخطوا بشاطهم الطبيعي على هذه
الارض الحجازية التي لم يستعمروها الا مضطرين ولاتمسوا لانفسهم مستعمرات
أخرى أخصب وأحلب للنفع في المراق والشام أو مصر أو غيرها من البلاد التي
فتحت على المسلمين

أما النتيجة المادية لحو السلطة اليهودية في يثرب فواضحة فقد قسم الرسول
المغانم من الذهب والعصه ومن المنارل والمزارع على المهاجرين ووضع تحت يد
أنصاره زعامة الآطام التي أخذت من اليهود وما بقي من الأموال بعد هدايا
المهاجرين والا نصار حفظ في بيت المال للدولة العتية التي ظهرت بمظهر القوة مد
غزوة بني قريظة وكانت في حاجة تسديدة الى الأموال التي تساعد على تنفيذ
المشروعات المهمة في الحجار وأطراف الشام

أما تأثير هذا المورد الميسر في القتائل العربية الوثنية من قريش وغيرها
فستبينه فيما بعد .

وأما المناقرون فقد حمت صوتههم بعد يوم فريظه ولم يعد نسمع لهم أعمالاً أو

أقوالاً تناقض ارادة النبي وأصحابه كما كان يفهم ذلك من قبل
أما النساء والقرارى فقد يمث بهم الرسول الى نجد فابتاع بهم حيلاً وسلاحاً
وقد اصطفى لنفسه من نساء قريظة ربحانة بنت زيد فكانت عنده حتى توفيت
في حياته ويقول صاحب كتاب الطلقات إن الرسول ضرب عليها الحجاب وكان
معجباً بها وكانت لا تسأله الا أعطاهما ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله
بني قريظة لأعتقهم . . . وكانت امرأة جميلة وسيمة . . . ففارت عليه غيرة
شديدة فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح فشق عليها وأكثرت البكاء
فدخل عليها رسول الله وهي على تلك الحال فراجعها فكانت عنده حتى ماتت
عنده . . . (١)

وفي سورة الأحزاب آيات تتعلق بغزوة بني قريظة « ورد الله الذين كفروا
بغيطهم لم ينالوا حبراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين
ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون
وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على
كل شيء قديراً » (٢)

وكذلك قال العرب شعراً كثيراً في غزوة قريظة وغزوة الخندق وهو شعر
لم يوجد له نظير في الغزوات الأخرى عند ابن هشام وهو يدل على ما كان لذلك
الغزوة من وقع شديد في النفوس

وبما قاله جبل بن جوال الثعلبي يبكي بني قريظة :

ألا يا سعد سعد بني معاذ	لما لقيت قريظة والمضير
لمبرك أن سعد بني معاذ	غداة تحمّلوا هو الصبور
فأما الخرجي أو حباب	فقال لقينقاع لا تسيروا

(١) طلقات ابن سعد جزء ٨ ص ٩٣

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥ — ٢٧

وبدلت الموالى من حضير
وأفترت البويرة من سلام
وقد كانوا ببلدتهم تقالا
فان بهلك أبو حكم سلام
وكل الكاهنين وكان فيهم
وجدنا المجد قد نبتوا عليه
أقيموا يا سراة الأوس منها
تركتم قدركم لا شيء فيها

أسيد والدوائر قد تدور
وسمية بن أخطب ففى بور
كما تقلت بجحطان الصخور
فلا رث السلاح ولا دنور
مع الذين انحضارمة الصقور
بمجد لا تغيبه البدور
كأنكم من المخزاة عور
وقدر القوم حامية تفور

الباب الثامن

غزوة خيبر

الاسباب التي حلت الرسول على محاربة أهل خيبر — أهمية معاودة الرسول مع قريش قبل هذه الغزوة من الوجهة السياسية والحربية — مراقبة قبائل الحجاز لثرو خيبر — غدر بني عطفان بمحلفاتهم أهل خيبر — النضال حول أطام خيبر — سلام بن مشكم وبقيّة زعماء خيبر — المناطق الحربية في بلاد خيبر — حصون خيبر الننيعة — الملاح اليهود و طلب الصلح — لماذا لم يجهل الرسول أهل خيبر ؟ — رأى ابن هشام — آراء المستشرقين — مقام خيبر — صحف التوراة والرسول — زواج النبي بصفية بنت حيي بن أخطب — محاولة زينب ابنة الحارث الانتقام من الرسول — لماذا تزوج الرسول بصفية بنت حيي ؟ — خضوع يهود وادي القرى ومدك وتناء الرسول — نتيجة غزوة خيبر

ارتفعت فرائض يهود خيبر لما وصل اليهم ما حل باخوانهم في يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفة من تقمة المسلمين عليهم من جراء نحر يرضهم لبني قريش وعطفان مع حيي بن أخطب على محاربة الانصار

وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بان خطرا يتهدد كيان اليهود في الحجاز وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا الى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتبناه ثم يزحفوا على يثرب دون أن يستمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه في هذا الرأي^(١) وكانوا في هذه الاثناء يرسلون الوفود بالاموال الى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والقرارى . . .^(٢)

(١) الواقدي ص ٢٢٤

(٢) الواقدي ص ٢٢٩

وقد علم الرسول بما يدور في خلق يهود خيبر فأخذ يهيئاً لقتالهم ولكنه أجله الى أجل قصير لأسباب سياسية وأخذ الانصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كقدمات للغزوة

وكان من تلك الضحايا زعيان كبيراً النفوذ والسيطرة في خيبر وهما سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام

أما الاول فقد قتل غيلة على فراشه في خيبر بواسطة خمسة من رجال بني الخزرج قصدوا خيبر فاحتالوا على امرأة سلام وقالوا لها إنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الابواب فهجموا على سلام وطمنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدري^(١)

ونلاحظ أن هذا القتل لم يكن بعد غزوة قريظة مباشرة بل جرى قبيل غزوة خيبر وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فاراد المسلمون أن يتخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم وبين اليهود في ناحية خيبر

وأما الزعيم الثاني وهو اليسير بن رزام فقد كان يجتمع بيني غطفان ليعقد معهم المعقود والاتفاقت ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين « فبعث اليه الرسول عبد الله بن رواحة في نفر من أصحابه فهدوا الى اليسير بن رزام بخيبر وكلموه وقالوا له انك إن قدمت على الرسول استعملك وألزمك فلم يرالوا به حتى اذا كان بالقرقرة من خيبر على سنة أميال ندم اليسير على مسيره ففعل له عبد الله بن أنس فافتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمخراش في يده من شوحط فأثمة ومال كل رجل من الانصار على صاحبه من اليهود فقتله الا رجلاً واحداً أفلت على رجله . .^(٢)

وقد يدل هذا على صحة ما رواه الواقدي من أن بعض زعماء خيبر لم يوافقوا

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ١٢٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٤٠ — تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٦

على رأى سلام بن مشكم من محاربة المسلمين وأن السير بن رزام قد خرج مع عبد الله بن رواحة يقصد المدينة ليستغل في حلف مع الرسول ليمحو من قلوب الانصار الاستياء من اشتراك بعض زعماء خيبر والنصير في يوم الخندق وأما عبد الله بن رواحة فإنه لم يأت الى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها اضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم وقد اعتبره مؤرخو العرب قتل السير بن رزام من الاعمال السياسية الجليطة فقد وضعوا له باباً خاصاً كأنه غزوة من الغزوات

أما ابن هشام فقد وضعها في أخبار الانصار قبيل غزوة خيبر ولكي يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى فقد توجه الى مكة في ذى القعدة من السنة السادسة وتصلح مع قريش

وقد جاء ابن هشام بنص المعاهدة : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرد عليه وأن بيننا حية مكفوفة وأنه لا سلاسل ولا أغلال وأنه من أحب أن يسلم في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يسلم في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . (١)

أما بعد عقد الرسول هذه الهدنة فقد أصبح آمناً شر قريش وصارت له الحرية في أن يسير حيث شاء فأمر جموع المسلمين أن يتجهزوا لغزو خيبر وخرج بهم في المحرم من السنة السابعة قاصداً خيبر وهي على ثلاثة أيام من المدينة وأما الاسباب التي حملت قريشاً على عقد الهدنة فهي أن قريشاً كانت في حاجة شديدة الى هدنة مع الرسول لما ظهر في مكة من الصائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة ولما كانت تخشى على قوافلها من غارات المسلمين ولما كانت تتوقعه

من انتقام الرسول بعد أن خاطبته وكادت له في بدر وأحد ولخندق
ولما سمع القرشيون بمسير النبي إلى مكة خرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا
جلود الثور^(١) ونزلوا بنى طوى يماهدون الله أن لا يدخلها المسلمون عنوة أما
الرسول فلم يأت لقتال ولكنه جاء لزيارة البيت الحرام
ولا شك في أنه قد ظهرت للنبي بعد يوم قريظة سياسة جديدة أزاء قريش
قد أراد أن يأخذهم بالرفق ولكن أي رفق ؟ انه رفق القوى الذي يريد أن
يصل إلى غرضه بدون أن يحكم السيف وليس رفق هنا كرققه بمكة يوم كان
قليل الانصار

ويحدثنا ابن اسحق أن الرسول قل : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة
يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها^(٢)

فلما وقت قريش أن الرسول يميل إلى مهادتها لم ترد في القبول
أما نص عقد الهدنة فأننا نعتقد أنه كان أطول مما وصل إلينا في كتاب
السيرة فقد جرت مفاوضات كثيرة قبل الهدنة ولم تكن قريش بأقوال مبهمه
وانما طلبت شروطاً واضحة تضمن لمناحرها وقوافلها الأمان
والذي يرجع إلى آيات سورة الفتح التي يشرحها ابن اسحق يرى أن الاخبار
القليلة التي وصلت إليه عن يوم الحديبية يرجع الفضل فيها إلى الآيات أكثر من
الروايات التي لم يبق منها لهذه الا القليل

أما أنصار الرسول فقد غضبوا وثاروا اذ اعتقدوا أن شروط الهدنة في صالح
قريش وكانوا يودون أن تنصن لحكم الرسول بلا شرط ولا قيد وفي هذه الهدنة

(١) قيل للعوذ جمع عائد وهي الناقة التي معها ولما يريد أنهم خرجوا بدوات اللان
من الابل ليتودوا ألبانها ولا يرجوا حتى يملحوا عمداً وأصحابه في زعمهم . . . (الروض
الاقص جزء ٣ ص ٢٦٦)

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٢

قال عمر بن الخطاب كلمته المأثورة « علام نعطى الدينية في ديننا » (١)
وبالرغم من ثورة المسلمين على شروط الهدنة فقد كان في قبولها من الرسول
دلالة كبيرة على بصره بالمواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة ويؤيد ذلك ما قاله الزهري
فما فتح في الاسلام فتح قبل يوم الحديبية كان أعظم منه انما كان القتال حيث
التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلهم بعضهم
بعضاً والتقوا ففاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً
الا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك أو
أكثر... (٢)

أما الآيات التي تتعلق بيوم الحديبية فهي تحتوي على سورة الفتح بأجمعها
« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته
عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . . إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله
فوق أيديهم فمن نكث فاما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه
أجراً عظيماً . . وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد
أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد
الحرام والهدى معكوا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا
أن تطهروهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليسل الله في رحمة من يشاء لو تزيلاوا
لسد بنا الذين كفروا منهم عداً ألياً اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحية حية
الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألهمهم كلمة التقوى وكانوا
أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن
المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محققين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم
تملوا ففعل من دون ذلك فتحاً قريباً . . »

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٨

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤

وتلخص الأسباب التي حملت النبي على غزو خيبر فيما يأتي :

(١) ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين .

(٢) كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف بأساً وأوفرها مالا وسلاحاً ولم يكن هناك أى أمل في أن يمتنعوا الدين الاسلامى بعد ما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا في الاسلام ، ولما كان الغرض الذى يرمى اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان حتماً عليه في هذه الحال أن يقضى على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجرة عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض

(٣) لم يجد النبي قوة تقف في سبيل نشر دينه إلا قوتين اثنتين قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجو ويتمكن من نشر دعوته . أما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود

ويظهر أن صاحب السيرة لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر لذلك لجأ مؤرخو العرب — وقد كانت لهم سيرة ابن هشام الينبوع الذى يستقون منه جميعاً — الى الأخبار والروايات المصطربة فجاءت بعض رواياتهم مختلطة بكثير من المعائب والغرائب كما سنوضح ذلك فيما بعد

ومما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتح الاسلامية اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب تبيحتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يترامى لها من نتيجة صليل السيوف بين الانصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بلاد العرب وحاضرتها يعلقون آمالاً كبيرة على تلك الغزوة

وقد اقسم أهل مكة قسمين : طائفة منهم ترجح أن النصر سيكون لحليف

اليهود وطائفة ترى أنه سيكون من نصيب المسلمين وكثيراً ما تراهن بعض الأفراد من كلتا الطائفتين بسبب ذلك (١)

وقد كان الاهتمام بهذه الغزوة شديداً جداً في مكة أثناء القتال حول أطام خيبر حتى أن الحجاج بن علاط لما ذهب إلى مكة بعد أن انتهى الحرب بفوز المسلمين خدع أهلها وقال لهم « عندي من الخبر ما يسركم : هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسراً وقال أهل خيبر لا تقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بن كان أصاب من رجالهم فابتهج أهل مكة لهذا الخبر ودخلوا إلى الكعبة ليقدموا الضحايا إلى اللات والعزى . . (٢)

وأما يهود خيبر فقد أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين قبلوا (٣)

ولكن بطون غطفان التي اشتهرت بشدها يوم الخندق أخلت بيهود خيبر أيضاً إذ بعد أن نهأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الاسلامي دب الخوف في قلوبهم واستولى عليهم الفرع فرجعوا على أعقابهم وأقاموا في أهلهم وغلوا بين الرسول وبين خيبر (٤)

ولكن يظهر أن غطفان لم ترجع على أعقابها من جراء الخوف من طلائع الجيش الاسلامي كما يقول ابن هشام لأن لدينا رواية أخرى تقول إن الرسول قد بعث إلى بني فزارة من بني غطفان وكانوا قد قدموا لمحاربة المسلمين مع يهود خيبر يطلب منهم أن « لا يعينونهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً ساء لهم قابوا عليه وقلوا حلفائنا وجيراننا فلما افتتح الله خيبر أتاه من كل هناك

(١) الواقدي ص ٢٨٩

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦

(٣) تاريخ الخميس ص ٢٨ ص ٤٨

(٤) ابن هشام ص ٣ ص ١٧١

من بني فزارة فقالوا التي وعدتنا قتال لكم ذو الرقبة لجبل من جبال خيبر^(١)
وقد جاءت هذه الرواية في كتاب المغازي للواقدي حيث يقول : إن عينة
زعيم بني فزارة قد غضب ولم يقبل ذا الرقبة لأن أرضها لم تكن خصبة^(٢)
أما اليهود فاتهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم « أدخلوا أموالهم
وعيالهم في حصن الوطيج والسلام وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم وجمع المقاتلة
وأهل الحرب في حصن نطاة وسلام بن مشكم مع أنه كان مريضاً جاء ودخل نطاة
معه وحرص الناس على الحرب »^(٣)

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدرين قد
مارسوا القتال والضال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم في رد
عادة المغيرين عن أطايعهم . . .^(٤)

وكان الرسول قد جاء بخيبر الانصار مسلحين بكل ما غنموه في الغزوات
السابقة وكذلك انعم اليهم كثيرون من قبائل العرب البادية طمعاً في أموال
اليهود

وكان من نتائج أول معركة بعد أن التقى الجمعان حول حصن نطاة أن وصل
عدد جرحى المسلمين إلى ٥٠^(٥)

وعلى العموم فإنه من المتعذر معرفة عدد القتلى في هذه المعارك لأن المؤرخي
العرب — كما قلنا — لم تصلهم أخبار كثيرة عن غزوة خيبر وفصلاً عن ذلك
فإنه من المعروف أن المؤرخين في التاريخ العام لا يذكرون عدد القتلى والجرحى
من جهاتهم يتنايبون في عدد القتلى والجرحى من العدو

(١) تاريخ الخميس - ٢ ص ٦٠

(٢) الواقدي ص ٢٧٩

(٣) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٠

(٤) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٠

(٥) الواقدي ص ٢٨٦

وقد نكب اليهود في أول عهد الفزوة بنكبة شديدة بسبب وفاة زعيمهم سلام بن مشكم في حصن نطاة وكان المسلمون يحاصرونه أثناء ذلك ^(١)
وقد وجد في هذا الحصن أولاد بني قة وكانوا أصحاب ثروة طائلة في خير
حق قالت عائشة زوج الرسول عن هذه الاسرة : ما شيع رسول الله من خير
الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قة ^(٢)

وانتقلت القيادة بعد وفاة سلام بن مشكم الى الحارث أبي زينب الذي
خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الاسلامي فانهزم أمام بني الخزرج
الذين بادروا لقتاله واضطروه الى أن يرجع الى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود
رابطى الجبل وهجموا على الانصار حتى وصلوا الى حامل الراية بالقرب من الرسول
فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية الى الحصن قتال ورجع ولم يكن فتح وقد
جهد ثم بعث في القد عمر بن الخطاب ورجع ولم يكن فتح وقد جهد فدعا الرسول
عليا وهو أرمد فنفل في عينه ثم قال خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك
فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله هاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من
يده فتناول على بابا كان عند الحصن فتوس به فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى
فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد كان في نفر ثمانية اجتهدوا على
أن يقلبوا الباب فلم يقلبوه ^(٣)

أما صاحب تاريخ الخميس فيسرد هذه الاخبار ويلاحظ أن الذين أرادوا
خلع باب الحصن كانوا سبعين ولم يحركوه الا بعد جهد . . . وقد حمله على بن أبي
طالب على ظهره وجعله قطرة دخل عليها المسلمون الحصن ثم ألقى ذلك الباب
وراء ظهره ثمانين تبعا ^(٤)

(١) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٠

(٢) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٣

(٣) ابى هشام - ٣ ص ١٧٦

(٤) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٦

وفى أثناء هجوم الانصار على حصن ناعم قتل البطل الخبيرى مرحب بعد
مبارزة عنيفة مع محمد بن مسلمة ^(١)
وتذكرنا هذه المبارزة بحسب رواية صاحب الخيس بالروايات الخرافية
عند قدماء الافريق

والذى يمكننا أن نستنتج من هذه الروايات أن معارك عنيفة دارت حول
حصن ناعم دون أن يتغلب المسلمون على اليهود فأمر الرسول أنصاره أن يقطعوا
أرباعاً من نخيل اليهود ليدخل العرب في نفوسهم ^(٢)

وقد نصح أبو بكر الصديق الرسول بأن يمتنع عن قطع باقى الاشجار ففعل ^(٣)
وسقط حصن ناعم بعد أن قتل قائده الحارث أبو زينب ^(٤)

وكان حصن ناعم من الحصون للبيعة فى منطقة نطاة التى كانت بها أطام
تعرف بهذا الاسم

وكانت بلاد خيبر منقسمة الى ثلاث مناطق حرية الاولى نطاة والثانية
الشق والثالثة الكنتية

وبعد أن سقط حصن ناعم توجه المسلمون الى حصن الصعب بن معاذ
ورحوا عليه ففرق اليهود ثملهم فاضطر الرسول أن يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا
واقحموا السور ولكنهم وجدوا بعده سورا آخر داخلها فأزروه بعد جهد شديد
وارتد اليهود الى حصن آخر هو حصن الزبير فى نفس منطقة نطاة ^(٥)

وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ فى حالة صلك شديد
لقلة المؤن عندهم وكثرة الجيوش فتوجهت جماعة منها الى الرسول تشكو اليه

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٥

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ٢٦٨

(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٥ — الواقدي ص ٢٧١

(٥) الواقدي ص ٢٧٤

وتطلب منه ما تسد به رمقها . فلم يجد الرسول شيئاً يعطيهم إياه فقال اللهم انك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه^(١)
وقد أذن الرسول للانصار في أكل لحوم الخيل^(٢)

وحدث أثناء ذلك أن أحد المسلمين اغتم شاتين اغتمهما بعد أن دخلت أولاهما الحصن فحضرهما تحت يديه وأقبل بهما إلى الرسول فذببحوهما وأكلوهما وكان هذا الرجل إذا حدث هذا الحديث بكى^(٣)

لكن بعد فتح حصن الصعب بن معاذ وجد المسلمون طعاماً وودكا كثيرا^(٤)
ويظهر لي أن معاذاً هذا لم يكن علماً لشخص كما تشعر بذلك تسمية الحصن به بل تعرف الصخرة العالية في اللغة العبرية باسم معاذ

وقد كان هذا الحصن على صخرة عالية كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الجيس^(٥)
أما حصن الزبير فقد كان منيعاً جداً حتى أن المسلمين لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود إلا بعد أن جاءهم يهودى ففدروا خواته فصيح لم يقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجري إلى القلعة من تحت الأرض فاضطر اليهود إلى أن يخرجوا منه . وبعد مبارزة عنيفة أتهموا وفروا إلى أثناء جلدتهم في منطقة أطام الشق^(٦)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٢

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٧

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٤

(٥) على أن تسمية الصخرة عماد في العربية لا يجمع من أن يكون إذا رُحل مسمى عماد أيضاً لأن عماد في اللغة العربية اللبأ وهو يطلق على المصدر والمكان والمكان كما في التاج ص ٥٧٠ ج ٢ وقد سمي الرب مطد تشبهاً بالشخص الملأ باللبأ الذي يلعب إلى الحامض قال صاحب القاموس (وسوا طائفة ومطاداً) ص ٣٦٩ ح ١

(٦) الرازي ص ٢٢٦

ولما أصبحت أطام منطقة النطاة في أيدي الغزاة اتجهوا الى اقليم الشق
وشربوا بمحاصرون قلعة أبي دهي على جبل شمرا
ولسنا نعرف مما جرى أثناء حصار هذا الحصن أكثر من انه حدثت
مبارزات بين أفراد من اليهود والمسلمين انتهت بفتح القلعة
ترك الرسول بعد ذلك بقية حصون منطقة الشق في أيدي اليهود لقلّة أهميتها
من الوجهة العسكرية وقصد أرض السكتية حيث احتشد اليهود في حصن القموص
الذي تجمعت فيه جموع المهزبين والفارين من الحصون الخيرية الأخرى
وكانت القموصي تحت قيادة بعض الأشراف من بني الحقيق وكان في هذا
الحصن نساء هذه الأسرة وقد كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة
العبرية التناج (٦٥)

وقد اختلف بعض مؤرخي العرب في أخبار حصي ناعم والقموص فابن
هشام والواقدي يقصان بعض الأخبار عن ناعم في حين يأتي صاحب تاريخ
النجاشي بنفس هذه الأخبار على أنها حدثت أثناء الحصار حول القموص (١)
على أننا لا نعلق أهمية كبيرة على أخبار كهده لا تجدي المجادلة فيها فنيلا
لأنها روايات خيالية أكثر منها حوادث حقيقية

استمر الحصار حول حصن القموص عشرين يوماً حيث انتهى بتمكين
المسلمين من فتحه عنوة ووقع في قبضتهم سبايا من النساء والفراري قسمها الرسول
بين أنصاره واصطفى لنفسه منها صغية ابنة حي بن أخطب

وبينا كانت الجيوش الإسلامية تحاصر الوطيح والسلام في اقليم السكتية
طلب اليهود الصلح وسألوا الرسول أن يحقن دماءهم فأجابهم الى طلبهم وحقن
دماءهم (٢)

(١) تلويح النجاشي - ٢ من ٥٥

(٢) ابن هشام - ٣ من ١٧٩

وهنا تساءل لماذا عامل الرسول يهود خيبر بغير المعاملة التي عامل بها يهود يثرب ؟

ويتلخص الجواب على هذا السؤال في أن خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها من الحدائق والمزارع والتخيل ما يحتاج للأيدى الكثيرة التي مارست أشغال الزراعة والفلاحة ولم يكن من العرب من مارس ذلك الا التزر القليل وفوق ذلك لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها لاحتياجه اليهم في الاعمال الحربية ولم يكن في الامكان ترك هذه الارض المخصصة بوراً لا تنتج زرعاً ولا ثمرأ الا أن الدولة الاسلامية الناشئة كانت في أشد الحاجة الى الاموال الكثيرة فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الارض وينتجوا منها الزرع والتمر ولذلك كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين أكثر منها في جانب المغلوبين

هذا الى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول ويشير حقده عليهم كما فعل غيرهم وكل ما كلف منهم لا يعمدوا اشتراك بعض رعاء بني النضير اللاجئين الى يهود خيبر في تحريض قريش وغطفان على المسلمين في يوم الخندق وما دامت شوكة اليهود في المحاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في أراضيهم بل كان في وجودهم مصلحة كبيرة حيث يستمر مجهوداتهم في الاعمال التجارية والزراعية للاكثار من واردات الحكومة الجديدة كما ذكرت آنفاً ويرتاب بعض المستشرقين في قول الواقدي (إن المسلمين لم يتركوا ليهود خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذرايعهم)^(١)

ويؤيد المستشرقين في ارتيابهم هذا أن الواقدي نفسه يقول في نفس الصحيفة التي ذكر فيها ذلك إن اليهود قد جاءوا من منطقة السكينة لتراء غنيمة القموص وفداء النساء والذراري من أيدي الظافرين فن أبين جاءوا بما يشتركون

به القنائم ويقتلون النساء والفتوة إذا لم يكن المسلمون تركوا لهم الأتوباً واحداً لكل واحد منهم

والواقع أن الرسول خمس بلاد خبير وقسمها على الأنصار وعلى أصحابه ونسائه بطريقة الأسهم وأقام اليهود على أراضيها على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وكان رسول الله يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعمل عليهم في الخمر^(١)

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المفاتيح التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم . . . (٢)

وبدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بأزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب . م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو السون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام

وقد قلنا إن الرسول قد اصطفى لنفسه صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن قتل زوجها كنانة بن الربيع ويظهر أن بعض الانصار خافوا على النبي من هذا الزواج إذ لما أعرض رسول الله بصفية بخير أو ببعض الطريق وكانت التي جعلتها رسول الله ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ماحان فبى بها رسول الله في قبة له ومات أبو أيوب خالد متوشحاً سيفه بحرس رسول الله ويطوف

(١) ابن هشام - ٣ ص ١٩٠ - ١٩٧

(٢) تاريخ الخبيس - ٢ ص ٦٠

بالقبة حتى أصبح رسول الله فلما رأى مكانه قال مالك يا أبا أيوب قال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر نفقتها عليك....^(١)

وقد كان المسلمون محقين في خوفهم على الرسول وقيامهم على حراسته لأن يهود خيبر كانت نفوسهم قد امتلأت بلقعد على الانصار الذين فتحوا أمصارهم واقتسموا أموالهم وأخضعوهم لسلطانهم وهي غريزة بشرية لا يخلو منها أحد اذ ليس في الناس من يقبل على نفسه الضيم والموان فقد قتل يهود خيبر رجلا من المسلمين بعد أن رجعت جيوش الانصار الى المدينة^(٢)

ويدل على مبلغ ما كان في نفوس اليهود من الاستياء ما أقدمت عليه امرأة يهودية من عمل بالغ غاية القسوة اذ اراحت أن تنتقم لقومها « فاهتت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية كانت مسمومة ووضعتها بين يدي الرسول فتناول الأتراع فلاك منها فلم يسخها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله وأما بشر فساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال ان هذا العظيم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال ما حملك على ذلك قالت ملفت من قومي ما لم يخف عليك قتلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التي أكل...^(٣)

ولقد أثار هذا العمل سخطاً شديداً في نفوس مؤرخي العرب على هذه الفتاة التي حاولت أن تقتل حياة الرسول بمنزل هذه المكيدة

ولكن يجب ألا يغيب عن البال صعوبة اطمنان فتاة الى الحياة بعد ان قتل أبوها وكان زعيماً شريعياً ومات زوجها وكان قائداً ذا مجد ناليد وفتاة في

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٥

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٩

مثل موقفها لا بد أن تسقط تحت سلطان الغضب وتضئ لوجي الانتقام لا سيما وهي مالكة له قادرة عليه

والمؤرخ الذي يلتفت الى هذه الاعتبارات كلها يلتبس لهذه المرأة بعض العذر فيما أقامت عليه من عمل منكر

أما صفية بنت حيي بن أخطب فقد أقامت على الولاء والوفاء لزوجها الجديد وبقيت معه قرينة مخلصه الى أن انتقل الى جوار ربه

وقد اتفقت النبي بعمله هذا أثر الفاتحين العظماء حيث كانوا يتزوجون من بنات عظماء الملوك التي كانوا يتنحونها ليخفوا من مصابهم ويحفظوا من كراهتهم^(١)

ولقد كان بعض نساء الرسول يعاملن صفية بكبرياء وعظمية فكان ذلك يؤلمها ويبيكها فقال لها النبي : قولي لمن إنك ابنة هارون وكان عمك موسى رسول الله^(٢)

ويحدثنا ابن سعد « أن نبي الله في الوجد الذي توفي فيه اجتمع اليه نساؤه فقالت صفية بنت حيي أما والله يا نبي الله لو ددت أن الذي بك بي ففتمزها أزواج النبي وأبصرهن رسول الله فقال مضمض^(٣) فيقلن من أي تبي يا نبي الله قل من تغامزكن بصاحبكن والله إنها لصاذقة . . .^(٤)

وقد توفيت صفية ستة اثنين وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالقيع^(٥)

وفي أثناء محاصرة المسلمين للوطيح والسلام من أطام خير أرسل الرسول

(١) راجع حديث البخاري - ١ ص ١٠٦ [صفية بنت حيي سيدة قريظة والصبر لا تصلح إلا لك . . . فأعتقها رسول الله]

(٢) الرازي ص ٢٧٩ - ابن سعد ج ٨ ص ٩١

(٣) أي أمسكن أو ماكن فقد تمسكت

(٤) ابن سعد جزء ٨ ص ٩١

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٩٢

بعض جنوده الى فـدك الواقعة شمال بلاد خيبر وكان قائـد هذه البعثة محيصة بن مسعود فـدنا أهلها الى الاسلام ولما رأى أن لا ميل لهم فى الصلح وأرادوا أن يحاربوه جاءت اليهم أخبار خيبر فوقع فى قلوبهم خوف عظيم فأرسلوا جماعة من اليهود الى النبي حتى يصلحوه فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يسطوا النبي نصف أرض فـدك ولهم نصفها فرضى النبي فصالحهم على ذلك^(١)

فكانت فـدك خالصة للرسول لأنه لم يوجف عليها تخيل ولا ركـب^(٢) ولما فرغ الرسول من أمر خيبر تجهز للرحيل الى المدينة عن طريق وادى القرى فلما سمع أهلها جنود المسلمين نهياًوا للقتال وعرض عليهم الرسول الاسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم الى الليل ثم تصالحوا وأقامهم النبي على أراضيهم وذراريهم وأموالهم

ولما وصل أمر خيبر وفـدك ووادى القرى الى يهود تباه خافوا وقبلوا الجزية^(٣)

وقد سرد الواقـدى حوادث مبارزات وقمت بين جماعات من يهود وادى القرى وجمهور من المسلمين^(٤) رأيت ألا أقـلها لعدم أهميتها

وعلى كل حال قد قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسى فى البلاد الحجازية قضاء نهائياً. بعد أن قضوا عسوراً طويـلة وهم يستمعون به ويتشاورون ظلاله فأخذت حاكم الاقتصادى تندهور شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى الدرك الاسفل من الفقر والفاقة وقد هـدموا ما كان لهم من تأثير وعوذ عند العرب فى الجزيرة العربية

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٣

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٣

وقد جاء الواقدي بقصة تدل على ما وصل اليه اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال وغضاضة عيش قال عن انتهت اليه روايته : كانت عادتنا أن نخرج في الجاهلية أثناء القحط من يثرب الى جهات خيبر وفدك حيث كنا نجد عند اليهود الثمار الوفرة والاموال الكثيرة وحيث كنا نقابل منهم بالحفاوة والاکرام فلما أدركنا الضبط الشديد بعد غزوة خيبر خرجنا اليها كما دتنا فوجدنا الدهر قد انقلب عليها ووجدنا الجلب قد ضرب أطنا به فيها حتى لم نجد أحداً من الاغنياء والاشراف بل كان معظم أهلها في فقر مدقع يجهدون أنفسهم في أعمال الفلاحة وكذلك لم نجد من بينهم من يقابلنا بتلك الحفاوة التي اعتدناها منهم في الجاهلية بل كانوا ينظرون إلينا بعين البغض والانتقام وكان يهود نطاة والشق في سوء شديد أما في أطام الكنية فقد شعرنا بأن حالة السكان أحسن فأقنا بينهم مسرورين^(١)



وهذه الوثيقة التاريخية أكبر برهان على سوء حال اليهود في خيبر بعد الغزوة فضلاً عن أنها تؤكد ما جاء في سيرة ابن هشام عن الدمار والخراب الذي أصاب خيبر أثناء الغزوة

أما وجود منطقة الكنية في حالة أحسن مما كانت عليه منطقتنا نطاة والشق فيرجع الى أن أغلب أطامها صالح الرسول فأقامهم على أراضيمهم ولم يمس الانصار من حداقهم وذراريهم شيئاً

البَابُ الْإِتَابِعُ

أَجَلُ الْيَهُودِ عَنِ الْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ

وَقَرَفُ الْحَصُومَةِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ مَعْدُ غَزْوَةِ خَيْرٍ — عَهْدُ أَقَةِ بْنِ أَبِي الْيَهُودِ —
وَجُودُ عَنَاصِرِ يَهُودِيَّةٍ فِي الْمَدِينَةِ طُولَ حَيَاةِ الرَّسُولِ — كَتَبَ الرَّسُولُ إِلَى يَطْوُنَ الْعَرَبِيِّ وَالْيَهُودِ
— الصَّحِيفَةَ إِلَى آلِ بَنِي حَنِيَّةٍ — رَأَى صَاحِبُ فَتْوحِ الْبَلَدَانِ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ — اِكْتِشَافُ
نَصِّ السِّكِّاتِ فِي الْمَقْبَرَةِ الْيَهُودِيَّةِ بِعَمْرٍ — رَأَى الْمُؤَلِّفُ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ — حَالَةَ الْيَهُودِ فِي
الْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ — لِذَا طُرِدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَغْلَبَ يَهُودِ
خَيْرٍ ؟ — أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٍ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ — قِصَّةُ ابْنِ هِشَامٍ فِي أَجْلَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
طَوَائِفَ الْيَهُودِ — رَأَى ابْنُ سَعْدٍ صَاحِبُ الطَّبَقَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ — صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ
وَأَحَادِيثُهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ — وَجُودُ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ إِلَى نَهَايَةِ الْقُرُونِ الْمَلْفِي عَشَرَ
لِلْمِيلَادِ — خَاطِبَاتُ طَوَائِفِ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى الْآنَ

قُلْنَا إِنَّهُ كَانَ مِنْ تَتَابُجِ غَزْوَةِ خَيْرٍ أَنْ قَضِيَ قِصَاءُ تَامًا عَلَى الْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ
وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِّلْيَهُودِ فِي أَقَالِيمِ الْحِجَازِ
وَقَدْ تَرْتَبَ عَلَى هَذَا أَنَّهُ انْقَطَعَتْ الْخَصُومَةُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَوَقَفَ تِيَارُ
الْمُطَاعِنِ وَالْمُنَآبِ الَّتِي كَانَتْ مُتَبَادِلَةً بَيْنَ الْعَرَفَيْنِ
وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِ تَمَيُّ كَثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ
الَّتِي تَتَضَمَّنُ ذِمَّ الْيَهُودِ وَالْعَطْنِ فِيهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْغَزْوَةِ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَتْ مِنْ
ذَلِكَ فِي الْقُرَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ يَوْمِ بَدْرٍ وَغَزْوَةِ خَيْرٍ
وَقَدْ عَاشَ الْيَهُودُ الَّذِينَ لَمْ يَنْزَحُوا مِنَ الْحِجَازِ مُطْمَئِنِّينَ لَا يَمْسُهُمْ أَحَدٌ بِسُوءٍ
وَعَادَ عَدَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ بِدَلِيلٍ مُجَآءٍ لِبَعْضِهِمْ مِنْ ذِكْرِ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ وَفِي

كتاب المفازى هو احدى وقد استنجدت بما قرأت في هذين المصنفين عن
البقية الباقية من اليهود في المدينة بعد غزوة خيبر أنهم كانوا جميعاً من بني قينقاع
وقد كان هؤلاء قد جلوا عنها فافوا السرب في غودتهم اليها وما هي الاسباب التي
دعت الى ذلك ؟ لم يكن من سبب لاجلاء بني قينقاع عن المدينة الا امتناعهم
عن اعتناق الدين الاسلامى فهم لم يرتكبوا شيئاً من الجرائم التي توغر صدور
المسلمين وتملؤها بالحق والضغينة عليهم بعد توطيد سلطانهم وثبيت قواعدهم
واذن فليس ما يمنع من عودة بعض الامر من بني قينقاع الى المدينة واستيطانهم
فيها لاسباب وان وجودهم في المدينة كان ضرورياً للانتفاع بهم في استثمار الاموال
الكثيرة التي جلبت الى يثرب من غنائم البطون العربية واليهودية المغلوبة على
أمرها وكان بنو قينقاع يحسنون كثيراً من الصناعات لاسباب صناعة الصياغة

أما العرب فلم تكن لهم خبرة بهذه الصناعات من أجل ذلك تفاضى الانصار
عن رجوع بعض اليهود الى يثرب فأقبل عدد منهم عليها وعكفوا يعملون في
أعمالهم القديمة

ولما توفي عبد الله بن أبي بكى عليه اليهود ووقف النبي على قبره وعزى
ابنه وألبسه قيصره (١)

وقد خرجت نساء الاوس والخزرج جميعاً الى جميلة ابنة عبد الله وشاركنها
في البكاء عليه وضربن بأيديهن على وجوههن وكثر القوم من بني قينقاع
والمناقبون حول سريره حين لفظ نفسه الاخير أثناء مرضه فأغضب ذلك ابنه
الحنيف حتى هم في ذات يوم أن يغلقي الباب في وجههم فتمنع والده وقبح فعله
وأعجى عليه باللائمة وقال له دعمهم فلن قربهم مني يشقى صدرى العليل ويخفف
من آلامى فقد شاركوني فيما نزل بي من النوائب وقد كان عبد الله بن أبي مبحلاً

فيهم حتى قتلوا له يا عبد الله نود أن فنديك بدمائنا وأموالنا . . . ولما مات أرادوا أن يستأثروا بدفنه جون الأنصار ولكن عبادة بن الصامت أمر بضربهم وقام المسلمون بأعمال الدفن وظل الرسول أثناء ذلك واقفاً لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجنة عن العيون وأخذ بنو قينقاع والمنافقون ينشرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والالام . . . (١)

وقد أثرت هذه النصوص التي نقلتها آفاً في العلماء المستشرقين وحللتهم على أن يشكوا في صحة بعض الأحاديث التي تقول إن البقية الباقية من اليهود في المدينة قد تم جلاؤها عنها في حياة الرسول (٢)

ويؤيد شكهم ما وجدنا من روايات ونصوص تاريخية تدل على أن الرسول كان يمايل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى أنه أوصى عامله معاذ بن جبل (بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم) (٣)

وعلى هذا النحو عمل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا دفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم . . . (٤)

وقد دخل يهود بني غادية وعريض في حلف الرسول كما يحدثنا ابن سعد في مصنفه عن (بعثة رسول الله الرسل بكتبه) : وكتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غادية أن لهم النعمة وعليهم الجزية ولا عدى ولا جلاء الا قبل مد والنهاية وكتب خالد بن سعد وهم قوم من يهود . . . وكتب رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني

١ (١) الواقدي ص ٤١٥

(٢) ولصاحب كزالعمال حديث يقول ان امرأ من اليهود من المدينة قتالوا أقربا الرسول وأنت محررا قال أقرم التي وأنا أرى أن أحرركم فأخرجهم من المدينة (ج ٢ ص ٣٠٣) :
(حديث ٦٣٥١)

(٣) البلاذري ص ٧١

(٤) البلاذري ص ٧٨

عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمح وعشرة أوسق شعير في كل حصاد وخسين وسقا تمرا يوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئا وكتب خالد بن سعيد وبعو عريض قوم من يهود... (١)

وأهم من كل هذا تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لآل بني حنينة وأهل مقنا فقد وصلت إلينا وثيقة تاريخية في هذا الصدد من مرجعين مختلفين ونحن نقل النصين لتقارن بينهما ونستخلص منها بعض النتائج المرتبطة بموضوعنا

يقول صاحب المرجع الأول وهو البلاذري : إن الرسول صالح أهل مقنا وبني حبيبة (الصواب حنينة) على ربيع عروكهم وغزولهم (العروك خشب يصطاد عليه) وربع كراعهم وحلقهم وعلى ربيع ثمارهم وكتب إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا سلم أنتم فانه أنزل على أنكم راجعون إلى قريبتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذهمة رسوله وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قريبتكم إلا رسول الله يجبركم كما (٢) يجبر منه نفسه فان رسول الله بزيتم ورفيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله وأن لكم بعد ذلك ربيع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اعتزلت نساؤكم وانكم قد تريتكم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسجرة أو مسمم وأطعم أن يكرمكم ويغفروا عن مسيتكم ومن اتهم في بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له ومن أظلمهم بشر فهو شر له وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله...

(١) نسخة رسول الله الرسل بكتبه : ابن سعد ص ١٨ طبع العالم Wellhausen . رابيه

(٢) لهما . ص ٢٢

وكتب على بن أبي طالب في سنة ٤٠٠ . . . (١)

ويضيف المؤلف الى هذه الوثيقة التاريخية أنها وصلت اليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها وهي من جلد أحر دارس الخط وأما النص الآخر لهذه الماهدة فقد وصل إلينا بعد اكتشاف آثار قديمة في المقبرة اليهودية بمدينة القسطاط حيث عثر عليه تحت أنقاض وهذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لحنية ولأهل خيبر وآل مقنا وقراريهم ما دامت السموات والارض

(سلام) أنتم إني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو . . .

أما بعد فإنه أنزل الوحي انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله ولكم ذمة الله وذمة رسوله ولكم ذمة الله على أنفسكم ودينكم وأموالكم ورقبتكم وكل ما ملكت أيما نكم وليس عليكم أداء جزية ولا نجز لكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحسدون (ولا تحرسون ١٢) ولا تصلحون ولا يجعل أحد عليكم ولا تمنعون من لباس المشقات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح ومن قاتلكم قاتلوه ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكه حكم المسلمين ولا يستدى عليكم بالفضاء (ولا تجرلون منزلة ١٢) أهل الدمة وإن استغتم تعاون وإن استغفتم ترفدون ولا تطالبون ببصاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ولا يقطع لكم شع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون من ولاية المسلمين ولا يولى عليكم الا منكم أو من أهل بيت رسول الله (واسع ؟) لجنائزكم الى أن تصير الى موضع الحق واليقين وتكبروا لكرامتكم

والنكرامة صفية ابنة عمك وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن يكرموا
 كريكم ويعفوا عن مسيئكم ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله ولا
 أكره في الدين ومن منكم أتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربح ما أمر به رسول
 الله لاهل بيته تطون عطاء قريش وهو خسون ديناراً ذلك بفضل منى عليكم
 وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب فمن
 اطلع الى حنينه وأهل خبره ومقننا بخير فهو خير له ومن اطلع له بشر فهو شر له
 ومن قرأ كتابي هذا أو قرئ عليه وغيره أو خالف شيئاً مما به فعليه لعنة الله ولعنة
 اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين وهو برىء من ذمى وتغافى يوم القيامة
 وأنا كاطمه ومن كاطمنى فقد كاطم الله فهو في النار وكفى بالله شهيداً وبلائكته
 ومن حضر من المسلمين وكتب على بن أبى طالب بخطه ورسول الله أملى عليه
 حرفاً يوماً الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة
 تهجد عمار بن ياسر ولمان الفارسي مولى رسول الله وأبو ذر الغفاري (١)

ويظهر أن هذه المعاهدة التي استخلص صاحب فتوح البلدان خلاصتها
 ووصفها في كتابه إنما كانت معروفة لدى العلماء والمؤرخين من العرب في مصر
 وقد حافظ عليها اليهود في مدة قرون طويلة الى أن اندثرت مدينة الفسطاط في
 عهد الفاطميين وأصبحت قاعاً صفصفاً فدفت هذه الصحيفة تحت أقاض منازل
 يهودية الى أن اكتشفت حديثاً

لكن لا شك أن هذه الصحيفة مائقة كما لفتت صحائف ومعااهد كثيرة
 جداً بعد أن انتقل الرسول الى دار ربه لان الذين كانت بأيديهم معااهدات
 صحيحة قد أقرم عليها اللغفاء الراسدون ولم ينفصوا من تروطها نسع نمل (كما
 تقول هذه المعاهدة)

وانا لنعلم أن بطوناً عربية كثيرة اندفعت الى تزوير الكتب باسم الرسول وقد حافظت عليها

ولا غرو أن تظهر رسائل ملققة في عصر الاضطرابات التي حلت في الاقاليم الاسلامية من جراء الخصومة التي ظهرت بين الامام علي بن أبي طالب وبين عصابة معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان فعلى ذلك قد يكون لنا الحق كل الحق أن نشك في صحة هذه المعاهدة التي نحن بصددنا

لكن ما لا شك فيه أن الرسول قد منح أسراً غير قليلة من أهل خيبر حقوقاً لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الاقرار على الاراضى وايقاده لهم نصف الثمار فان هذا كان من حق كل يهود خيبر وقد نص على ذلك ابن هشام والبخارى كما نصا على أنه كانت هناك عقود وعهود بين الرسول وبين أسرى يهودية في خيبر كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما أسلوب هذه الصحيفة ولقنتها ففيها شبه كبير بنصوص المعاهدة الكبيرة التي عقدها الرسول مع اليهود بعد هجرته الى يثرب وهذا حمل بعض المستشرقين على الاعتقاد بان معاهدة من هذا النوع لم تكن ملققة لانها كانت موجهة الى آل صفية زوج الرسول أى الى حنينة في مقنا وخيبر

وأما الاسباب التي حملتنا على أن نشك في صحة هذه الصحيفة فهي :

- (١) لم يكن المسلمون أثناء حياة الرسول يؤرخون بالهجرة لان هذا لم ينقر الا في زمن خلافة عمر بن الخطاب على أن سنة خمس التي وجدت في ديل هذه المعاهدة انما تدل على أن كاتبها كان يجمل حملاً تاماً تاريخ غزوات الرسول
- (٢) لان مسير المسلمين الى خيبر كان في سنة سبع من الهجرة ولا يحتمل أن يعقد الرسول عقداً مع آل زوجه صفية قبل التحاقها به وقد كانت هي السبب الوحيد في منح الرسول آل بي حنينة تلك الحقوق الكثيرة اذا فرضنا صحة هذه الصحيفة .

(٣) إن السنة الخامسة للهجرة كان التراجع فيها بين الرسول واليهود على أشد ما يكون من الحدة والقوة وقد نزل في تلك السنة بعض آيات قرآنية تكاد تكون من نادر نطق في اليهود وتؤنبهم تأنيبا شديدا فليس معقولا أن يعقد الرسول في تلك السنة مثل هذا المقدم مع أسرة حنينة الخيرية دون أن يكون هناك عامل خاص يدفعه الى ذلك لاسيما أن آل صفية كانوا من زعماء القوم ومن أشدهم معارضة في تنفيذ مشروعات الرسول الدينية والسياسية

(٤) المفهوم أن المعاهدة لم تكن تشمل أهل خيبر ومقنا جميعا كما جاء في المعاهدة حيث يقول فيها « الى حنينة وأهل خيبر ومقنا » بل كانت موجهة الى حنينة وأهله في خيبر ومقنا لان هذه الحقوق والامتيازات لم تمنح الا لآل صفية دون غيرهم من اليهود وقد غير هذا التلقيق اليسير معنى المعاهدة جميعا

(٥) تنص المعاهدة على أن الرسول يسمح لكل يهود خيبر بأن يحملوا السلاح والا يماقبوا على قتل المشركين فهي حقوق لم تمنح لقوم مغلوبين لانها بمثابة تمكينهم من وسائل الاخذ بالثأر والانتقام ممن غلبهم وأذلهم

(٦) وتنص للمعاهدة على أن كل أهل خيبر يمنحون من العطاء مثل ما يمنح لبطون قريش على أن هذا العطاء بهذا المعنى لم يصرف أيام النبي فضلا عن تحديده بخمسين دينارا

وغير ذلك مما جاء في الصحيفة من الحقوق والامتيازات التي لم تكن الا لآل الرسول دون سواهم من الناس وغير معقول أن الرسول يمنح اليهود حقوقا لم يمنحها لعامة المسلمين وأن يسوى بينهم وبين آل بيته

(٧) على أن حوادث عمر بن الخطاب مع يهود خيبر دليل كاف على عدم وجود حقوق من هذا النوع لكل يهود خيبر كما سنوضح ذلك فيما بعد

على أن هذه العقود التي كانت لبعض الاسر لم تغير بوجه عام الحال التي آل اليها اليهود في البلاد الحجازية لانهم لم يرجعوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية

من ثروة طائفة وسُلطان كبير بل أخذوا في التدهور شيئاً فشيئاً ولم تفد كل الظروف
الحسنة التي صادفتهم بعد ذلك في إيقاف حركة هذا التدهور

والسبب في ذلك يرجع الى المراقبة الشديدة التي وضعت على حاصلاتهم
الزراعية وثمار أشجارهم التي كانوا ينفقون نصفها لاصحاب الاسهم من المسلمين
أما النصف الباقي فلم يكن كافياً لتكوين سكان خيبر ولم يكن ذلك كفيلاً بأن
يوجد لهم كمالهم الاول . . .

ثم جاء عمر أمير المؤمنين فأمر باجلاء أغلب بطون اليهود من خيبر وفدك
كما يذكر ذلك ابن هشام فيقول : كان الرسول يبعث عبد الله ابن رواحة الى
خيبر فيقسم ثمارها ويمدل عليهم في الخرص فلما توفي الله نبيه أقرها أبو بكر
بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها الرسول حتى توفي ثم أقرها عمر صدرا من
امارته ثم بلغ عمر أن رسول الله قال في وجهه الذي قبضه الله فيه لا يجتمعن بجزيرة
العرب دينان فضخص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبوت فأرسل الى اليهود فقال ان
الله عز وجل قد أذن في جلائكم فقد بلغني أن رسول الله قل لا يجتمعن بجزيرة
العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فلْيأتني به أنفذه له ومن
لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتحجز للحلاء فأجل عمر من لم يكن
عنده عهد من رسول الله منهم . . . (١)

ومن هنا نستنتج أنه كانت هناك عقود لبعض الاسر اليهودية وأن عمر الذي
أمر باجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر وفدك لم يتعرض لليهود وادى القرى
وتبء بسوء

ويؤخذ من هذا أن أهل وادى القرى وتبء كان لهم عقد خاص لم يسمح
للخليفة باخراجهم من بلادهم لا كما يمتدع بعض مؤرخي العرب أن تبء وادى

القرى لم تكن من أرض الحجاز لأن الحدود في تلك الأزمنة لم تكن معينة بدقة الى درجة أن يقال إن وادي القرى ليس داخلًا في الحدود الحجازية بل بالعكس كان هذا الوادي منطقة تابعة لخيف الحجازية وكل اليهود الذين يسكنونه يعتبرون من يهود خيبر

ويلفت العالم Leszynsky نظر الباحثين الى بعض أحاديث تتضمن الأمر باخراج اليهود من بلاد الحجاز كحديث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب... وحديث أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب... وحديث أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب...^(١). ويشك العالم المذكور في صحة هذه الاحاديث ويقول إنها قيلت بعد وفاة الرسول لأغراض خاصة...^(٢) ثم أن المسلمين لا يعولون على الاحاديث الا اذا كانت صحيحة ولم في قبولها ترتيب خاص فأهمها أحاديث البخارى ثم أحاديث مسلم وفي الدرجة الثالثة باقى الكتب الستة

ولابن اسحاق قصة أخرى عن سبب اخراج عمر بن الخطاب طوائف اليهود من خيبر ويقول: حدثني نافع عن ابن عمر قل خرجت أنا والبير والمقداد بن الاسود الى أموالنا بخيبر فتعاهدنا فلما قدمنا فترقنا في أموالنا قل فمدى على تحت الليل وأنا نائم على فراشي ففدعت يداى من مرفقى فلما أصبحت استصرخ على صاحبى فأنيانى فسألانى من صنع هذا بك فقلت لا أدري قال فأصلحنا من يدى ثم قدما بى على عمر فقال هذا عمل يهود ثم قام فى الناس خطيباً فقال أيها الناس ان رسول الله كان عامل يهود خيبر على أنا نخرحهم اذا شئنا وقد عدوا على على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الانصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليأخذ به

(١) كثر المال ٢ ص ٢٧٤ طبع حيدر آباد — حديث ٥٨٧٣ و ٧٤ و ٧٥

(٢) Die Juden zu Medina ص ١١٤

فأني مخرج اليهود فأخرجهم... ولما أخرج عمر اليهود من خيردرك في المهاجرين
والانصار وخرج معه جبار بن صخر وكان خالص أهل للمدينة وحاسبيهم قسم
خير على أهل جماعة الامم... (١)

أما ابن سعد فلم يأت بهذه القصص ويقول: ان رسول الله لما أفاء الله عليه
خير قسمها على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم وجعل نصفها لنوابه
وما ينزل به وعزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين وسهم النبي فيما قسم بين
المسلمين الشق ونطاة وما حيز معها وكان فيما وقف الوطيحة والكنية وسلام وما
حيز معهن فلما صارت الأموال في يد النبي وأصحابه لم يكن لهم من المال ما يكفون
عمل الأرض فدفعها النبي الى اليهود يسلمونها على نصف ما يخرج منها فلم يزالوا
على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثرت في يد المسلمين المال وقوا على عمل
الأرض فأجلى عمر اليهود الى الشام وقسم الأموال بين المسلمين (٢)

ففي ذلك يتضح جلياً أن السبب الذي حمل عمر على اجلاء أغلب طوائف
اليهود من خير يرجع الى كثرة الأيدي العاملة من الأمري الذين كثروا عند
العرب بعد فتوح بلاد الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأمري ذوى خبرة
بالأعمال الزراعية كيهود خير

ولما كان يهود خير يدفعون نصف حاصلات الأرض آثر المسلمون أصحاب
الأمم أن يكون لهم كل هذه الحاصلات ليتمكنوا من تأمين أسرارهم الكثيرين
من جهة ولوجود هؤلاء الأمري عملاً يقومون به من جهة أخرى فأتساروا على
أمير المؤمنين باجلاء البطون التي لم تكن لها عقود خاصة مع الرسول
ويحدثنا البخاري أن عمر أجلى يهود خير الى تيه وأربحاء (٣)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٧

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٨٢

(٣) البخاري ج ٢ ص ٧٢ — وص ٢٩٠

والواقدي رواية تؤيد صحة ما رواه البخاري يقول فيها : ان عمر أجلى آل الحارث أبي زينب المشهورين الى اريحاء بأرض فلسطين وكان أحد أبناء الحارث قد التقى في يوم من الأيام بقافلة من الاعراب في جهات أريحاء وهي راجعة من الشام الى خيبر فترع ابن الحارث الى وطنه وحن اليه واشتد به الشوق حتى آله الامر فغاطب الاعراب بقوله انه كان يود يوم أجلى عمر أسرته من خيبر أن يسئل في الاسلام حتى لا يبعد عن أرض أجداده ولكنه خشى أن يخنقره انقلب ويقولون لقد ضحى الحارث بحياته وأسرته ووطنه لاجل دينه ودين آفته فجاء ابنه فقدر به . . . (١)

أما الاسر التي كانت لها معاهدات خاصة مع الرسول فقد أقرها عمر وأقامت على أملاكها وأهلها

وقد بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادى عشر وكنكث وجدت طوائف منهم في جهات تباء في القرن الثانى عشر للميلاد ثم اعدم وجودهم في الحجاز وأطرافها شيئاً فشيئاً حتى اختلطوا في بقية الاعراب واندجوا فيهم وكان ذلك بسبب الضغط الشديد الذى حل بهم في عمود الاضطرابات التي حدثت بعد ان تسرب الوهن والاضمحلال الى الدولة العباسية

أما في بلاد اليمن فقد بقي فيها اليهود طول المصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من أطراف الجزيرة العربية الى أيامنا هذه رغم الرزايا التي لحقت بهم في ظروف ستنى ، والله يحكم لا عقب لحكمه

(١) الواقدي ص ٢٧١



المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عبرية وعربية وأجنبية

مصادر عبرية

תורה נביאים וכתובים (תנך)
תלמוד בבלי
דברי ימי ישראל ד"ר שמחוני
היסטוריה ישראלית ד"ר קלוזנר
דברי ימי ישראל נרץ
בפודי העתים

مصادر عربية

طبع مصر	القرآن الكريم
طبع لندن	سيرة ابن هشام
طبع أوروبا	فتوح البلدان للبلاذري
طبع لندن	تاريخ الخنيس للديار بكرى
طبع برلين (ترجمة المانية)	صحيح البخارى
طبع مصر	كتاب المغازى للواقدي
" "	أمثال الميداني
	تاج العروس

طبع مصر	مجاهد التنصيص
» بيروت	نادر أبي زيد الاتصاري
» »	ديوان السموءل لنعطويه
» مصر	طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي
طبع أوربا	تاريخ اليمقوي
» بولاق	خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمودي
» مصر	تاريخ الامم والملوك للطبري
» »	تاريخ ابن خلدون
	تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك
طبع برلين	طبقات ابن سعد
طبع حيدر آباد بالهند	كنز العمال (مجموعة من الاحاديث النبوية)
	أديان العرب تأليف الشيخ محمد نعمان الجارم
طبع برلين	بعثة رسول الله بكتبه لابن سعد
طبع مصر	كتاب الاغانى للامام أبي الفرج الاصبهاني
طبع مصر	ديوان الحماسة لابن تمام
	مقالة في الاسلام من كتب المبشرين
طبع مصر	الروض الانف شرح لسيرة ابن هشام
	معجم البلدان لياقوت
	مجلة الجامعة المصرية

مصادر أجنبية

(المانية وأجنبية وفرنسية)

H. Dozy : Die Israeliten zu Mekka.

Mangoldoth : The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam.

Burney : Israel's settlement in Canaan.

Caussin de Perceval L'histoire des Arabes avant L'Islamisme.

Welhausen Y : Skizzen & Vorarbeiten.

Glaser : Sammlung.

Glaser : Skizzen der Geschichte und Geographie Arabiens bis Mohamed.

Wuestenfeld : Geschichte der Stadt Medina

Calveter de Sacy : Memoires sur divers evenement de l'histoire des arabes avant Mahomet.

Lamence : Les Juives a la Meque,

Nicholson : A literary history of the Arabs.

Leszynsky . Die Juden zu Medina.

Mittheilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft.

Jewish Quarterly Review

Journal Asiatique.

فهرس

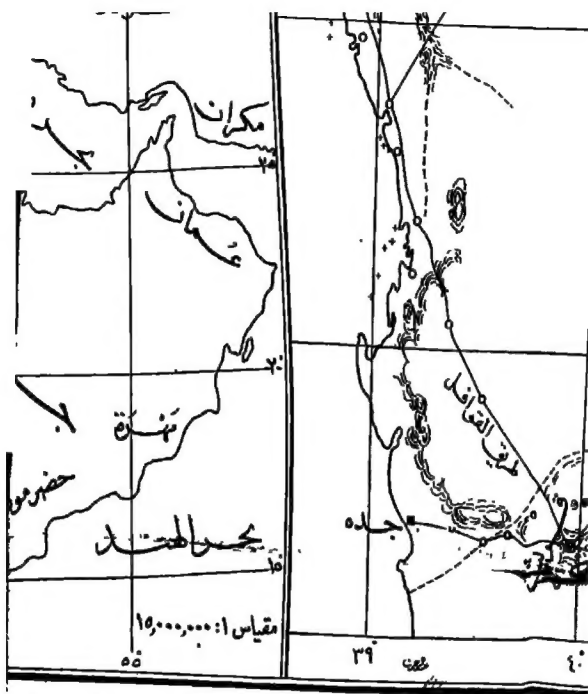
صفحة

الموضوع

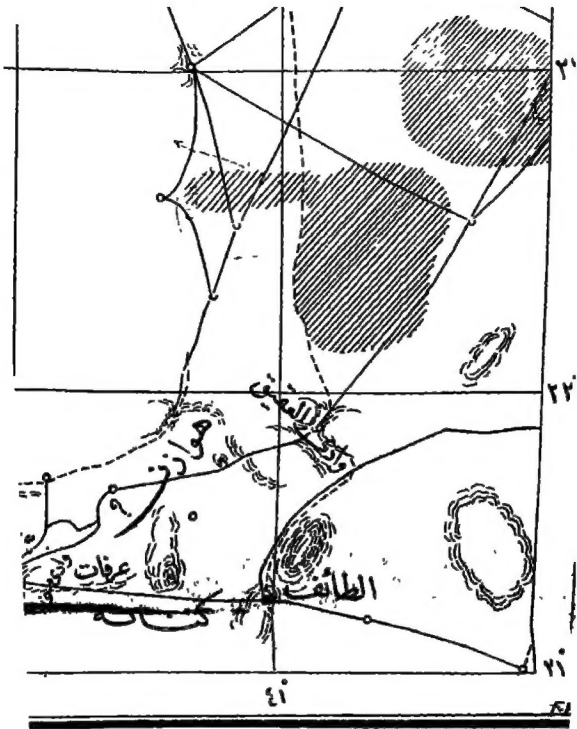
مقدمة لحضرة الدكتور طه حسين أستاذ أداب اللغة العربية بالجامعة

المصرية	ج - ٥
تصدير المؤلف	و - ١٤
الباب الاول : اليهود في بلاد الحجاز	١ - ٣٤
الباب الثاني : ظهور اليهودية في بلاد اليمن	٣٥ - ٤٩
الباب الثالث : بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود	٥٠ - ٨٠
الباب الرابع : أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في	
بلاد الحجاز قبيل ظهور الإسلام	٨١ - ٩١
الباب الخامس : مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية	٩٢ - ١٠٩
الباب السادس : هجرة الرسول الى يثرب واجلاؤه بنى قينقاع	
والنضير عنها	١١٠ - ١٣٢
الباب السابع : غزوة بنى قريظة	١٣٣ - ١٥٦
الباب الثامن : غزوة خيبر	١٥٧ - ١٧٢
الباب التاسع : اجلاء اليهود عن البلاد الحجازية	١٧٥ - ١٨٦
المراجع	١٨٩





اعتمدنا في رسم هذه الخريطة وتعيين اغلب مواقع البلاد والقبائل وطرق القوافل على خريطة (ب) لموريتس
 طبع برلين سنة ١٨٧٨م وخريطة (ت) منكه *Th Menke* طبع جوتة سنة ١٨٧٨م . عدا مواقع بعض القبائل والمدن
 استنتجنا لذا وضعنا بجانبها علامة استفهام ؟ . مواطن اليهود محاطة بسيياج من الخجور .



وسعت هذه الخريطة لكتاب تاريخ اليهود في البلاد العربية والجاهلية وصعدوا لاسلام
للكرد اسرائيل ولعاشقون